بوريس فاسيليف

# والفجر هادئ هنا...

فاسيل بيكوف

# سوتنيكوف

قصتان

دار التقدم
موسكو

والفجر هادئ هنا . . .
**ترجمة ابو بكر يوسف**

سوتنيكوف
**ترجمة برهان الخطيب**

Борис Васильев
А ЗОРИ ЗДЕСЬ ТИХИЕ...

Василь Быков
СОТНИКОВ

Две повести
*На арабском языке*

© الترجمة الى اللغة العربية ، دار التقدم ، ١٩٨١
طبع فى الاتحاد السوفييتى

В $\frac{70303-636}{014(01)-81}$ 528-81 4702120200

بوريس فاسيليف

## والفجر هادئ هنا . . .

ولد بوريس فاسيليف عام ١٩٢٤ وعمل مهندسا عسكريا ، وبدأ نشاطه الادبى كاتب سيناريو . نشرت قصته الطويلة الاولى «والفجر هادئ هنا . . .» فى مجلة «يونست» ومنحت جائزة احسن كتاب للشبيبة .
ونشر فيما بعد قصصه الطويلة «زورق ايفان» و«اليوم الاخير» و«لا تقتلوا التم الابيض» و«لم يرد اسمه فى السجلات» .

## ١

لم يتبق من البلدة الصغيرة الواقعة عند التحويلة رقم ١٧١ سوى اثنى عشر منزلا ، وحظيرة لادوات الاطفاء ، ومخزن طويل منخفض ، كان قد شيد فى مطلع القرن من كتل حجرية جمعت بترتيب . واثناء الغارة الاخيرة انهار برج المياه فلم تعد القطارات تتوقف هنا . وكف الالمان عن قصف المحطة ، لكن طائراتهم ظلت تحلق فوقها كل يوم ، فوضعت القيادة هناك ، تحوطا ، مدفعين رشاشين مضادين للطائرات .

كان ذلك فى شهر مايو عام ١٩٤٢ . وفى الغرب (فى الليالى الرطبة كان يتناهى من هناك دوى ثقيل للمدفعية) غاص الطرفان مترين فى الارض وغرقا تماما فى حرب الخنادق . وفى الشرق كان الالمان يقصفون القناة وسكة حديد مورمانسك ليل نهار . وفى الشمال دار صراع مرير من اجل الطرق البحرية ، وفى الجنوب واصلت لينينغراد المحاصرة نضالها العنيد .

اما هنا فكان المكان ركنا للاستجمام . وتخدرت اجساد الجنود من الهدوء والخمول كما فى حمام البخار ، بينما بقى فى المنـــازل الاثنى عشر ما يكفى من الزوجات والارامل الشابات ، اللائـــى كان باستطاعتهن تقطير شراب «الساموجون» * ولو من طنيـــن البعوض . وظل الجنود ثلاثة ايام يعوضون ما فاتهم من النـــوم ويجيلون النظر فيما حولهم . وفى اليوم الرابع بدأ الاحتفال بعيد ميلاد شخص ما ، ومن بعدها لم تتبخر من جو المحطة رائحـــة الشراب المنزلى اللزجة .

وكان قومندان المحطة ، الشاويش العبوس فاسكوف يرفع التقارير الى القيادة . وعندما كان يبلغ عددها العشرة كانـــت الرئاسة توجـــه لوما دوريا الى فاسكوف وتستبدل جنود نصف الفصيلة الذين انتفخت وجوههم من الشراب بغيرهم . ويظـــل القومندان حوالى اسبوع بعد ذلك يدير الامور بشكل ما معتمدا على قواه الذاتية ، ثم يتكرر كل شىء من جديد وبنفس الصـــورة السابقة تماما ، حتى ان الشاويش داب فى نهاية الامر على كتابة تقاريره السابقة ، مغيرا فقط التواريخ والاسماء .

صاح الرائد الذى جاء بناء على التقارير الاخيرة :

– انت تزاول التفاهات ! غرقت فى الاوراق ! انت لســـت قومندانا ، بل كاتب ما !

فردد فاسكوف بعناد :

– ابعثوا بجنود لا تشرب . . .

كان يخاف من الرؤساء المزمجرين ولكنه كان يردد ما يراه صحيحا مثل قندلفت الكنيسة ، ومن ثم مضى يقول :

– نعم ... بجنود لا تشرب ... وايضا بخصوص النساء يعنى . . .

– نبعث اليك بمخصيين ام ماذا .

فرد الشاويش بحذر :

– انتم أدرى . . .

---

* عرق منزل . المترجم



فقال الرائد وهو يزداد توقدا بصرامته :

– حسنا يا فاسكوف ! ستحصل على من لا يشربون . وعلى من لا يهتمون بالنساء ايضا . ولكن اذا لم تستطع قيادتهم ...

فرد الشاويش بنبرة متخشبة :

– تمام !

واخذ الرائد معه الجنود الذين لم يصمدوا للاغراء ، ووعد فاسكوف مرة اخرى وهو يودعه بانه سيرسل اليه بمن سيشيحون بوجوههم عن الجونلات والساموجون بأسرع مما يفعل الشاويش نفسه . بيد انه اتضح ان الوفاء بهذا الوعد لم يكن امرا بسيطا ، اذ لم يبعثوا اليه خلال ثلاثة ايام بشخص واحد .

وقال الشاويش موضحا لربة البيت التى يقطن عندها ماريا نيكيفروفنا :

– المسالة صعبة . فمفرزتان يعنى تقريبا عشرين شخصا لا يشربون ... ولو فتشت الجبهة كلها فانى اشك ...

ومع ذلك فقد ظهر ان شكوكه ليس لها اساس ، اذ اخبرته ربة الدار فى الصباح ان جنود المدفعية المضادة قد وصلوا . وكانت نبرة صوتها تنم عن خبث ، الا ان الشاويش لم يلحظ ذلك وهو يفرك عينيه من النوم ، وســـال عن الشىء الذى كان يقلقه :

– هل جاء معهم قائد ؟

– لا يبدو ذلك يا فيدوت يفجرافيتش .

كان الشاويش يغار على وضعه كقومندان ، فقال بغبطة :

– الحمد لله ! ليس هناك ما هو اسوأ من اقتسام السلطة .

وابتسمت ربة الدار ابتسامة غامضة وقالت :

– مهلا ، لا تعجل بالفرح .

فقال فيدوت يفجرافيتش برصانة :

– سنفرح بعد الحرب .

وارتدى عمرته وخرج .

وذهل . . . كان يقف امام الدار صفان من الفتيات الناعسات . وظن الشاويش فى البداية ان ذلك مجرد خيال سببه عدم استيقاظه

تماما ، فطرف بعينيه ، ولكن سترات الجنود ظلت نافرة فى تلك الاماكن التى لم تنص عليها اللوائح العسكرية ، بينما تهدلت من تحت العمرات بوقاحة خصلات شعر من جميع الالوان والموديلات .

وقامت اعلاهن رتبة بالتبليغ :

– ايها الرفيق الشاويش . . . المفرزتان الاولى والثانية من الفصيلة الثالثة التابعة للسرية الخامسة لكتيبة الرشاشات المضادة للطائرات تحت تصرفكم لحماية الموقع . تبلغكم نائبة قائد الفصيلة الرقيب كيريانوفا .

– هكذا . . .

قالها القومندان ممطوطة وبلهجة غير عسكرية تماما ، واضاف :

– اذن وجدوا من لا يشرب . . .

وقضى اليوم كله يعمل بالفأس : كان يشيد للمجندات اسرة فى حظيرة الاطفاء لانهن رفضن الاقامة لدى ربات الدور . وكانت الفتيات يحملن الالواح ويمسكنها فى المواضع التى يشير اليها دون ان يتوقفن لحظة عن الثرثرة . وركن الشاويش الى الصمت فى عبوس ، خشية ان يفقد هيبته .

وعندما فرغ من اعداد كل شىء قال :

– اياكم ان تخطو واحدة منكم اى خطوة خارج الموقع بدون امرى .

وسألته باندفاع تلك الفتاة ذات الشعر الاحمر التى كانت قد لفتت انتباهه منذ مدة طويلة :

– ولو حتى لنجمع التوت ؟

فقال :

– لم يظهر التوت بعد .

فسألت كيريانوفا :

– وهل من الممكن ان نجمع الحماض ؟ من الصعب ان نعيش دون طهى يا شاويش . . . والا أصابنا الهزال .

وطاف فيدوت يفجرافيتش بنظرة شك على السترات المشدودة على الاجساد الملأى ، لكنه سمح لهن :



– ليس ابعد من النهر . ستجدون الكثير منه هناك .

واصبحت منطقة التحويلة نعيما ، لكن هذا النعيم لم يخفف من متاعب القومندان . كانت المجندات صاخبات مشاغبات ، فكان الشاويش يشعر فى كل لحظة انه اصبح ضيفا فى داره هو . . . كان يخشى ان يتفوه بما لا ينبغى ، او يفعل ما لا يصح . اما ان يدخل مكانا دون ان يدق الباب فهذا امر لم يعد واردا على الاطلاق . واذا حدث ونسى ذلك مرة ، انطلق صراخ محذر فيرده على الفور الى مواقعه الاولى . اما اكثر ما كان يخشاه فيدوت يفجرافيتش فهو التلميحات والنكات حول ما يمكن ان يصدر عنه من غزل ، ولذلك كان يسير ناظرا الى الارض باستمرار وكأنه قد فقد مرتب آخر شهر .

ولاحظت ربة الدار سلوكه هذا مع مرؤوساته فقالت :

– لا تكشر هكذا يا فيدوت يفجرافيتش . انهن يناديننك فيما بينهن بالعجوز ، فلتنظر اليهن على هذا الاساس .

كان فيدوت يفجرافيتش قد بلغ الثانية والثلاثين من عمره هذا الربيع ، ولم يكن مستعدا لان يعتبر نفسه عجوزا . وبعد ان فكر قليلا توصل الى ان ذلك ليس الا اجراءات اتخذتها ربة الدار لتعزيز مواقعها الخاصة . فهى التى تمكنت من اذابة الجليد من على قلب القومندان فى احدى ليالى الربيع ، ومن الطبيعى ان تسعى الآن الى التمركز فى الخطوط التى احتلتها .

فى الليل كانت المجندات يطلقن النار بحماس من الفوهات الثمانى كلها على الطائرات الالمانية ، وفى النهار ينهمكن فى غسيل لا ينتهى ، فكانت قطع ما من الملابس منشورة حول حظيرة الاطفاء بصفة دائمة . وكانت مثل هذه الزينات شيئا غير لائق فى نظر الشاويش . ومن ثم قال للرقيب كيريانوفا باقتضاب :

– انها تكشف الموقع .

فردت على الفور :

– عندنا امر بذلك .

– اى امر .

– امر مناسب ، ينص على السماح للعاملات فى القوات المسلحة بنشر غسيلهن فى جميع الجبهات .

وصمت القومندان ... اللعنة على هؤلاء الفتيات ! لو اشتبكت معهن فلن تخلص من غمزهن وتضاحكهن الى الخريف...

كانت الايام دافئة ساكنة فتكاثر البعوض حتى لم يعد من الممكن السير خطوة دون غصن شجرة فى اليد . ولكن الغصن شيء هين ، شيء يمكن التغاضى عنه بالنسبة لشخص عسكرى . اما الطامة الكبرى للقومندان فهى انه سرعان ما بدأ يسعل ويتنحنح عند كل ركن ، وكانه عجوز حقا .

وقد بدأ ذلك فى يوم حار من شهر مايو عندما انعطف فى سيره خلف المخزن فصعق : اذ بهر عينيه بياض صاعق منبعث من ثمانية اجساد مشدودة ، حتى ان فاسكوف شعر بالحمى تجتاح بدنه . . . كانت مجندات المفرزة الاولى كلها وعلى راسهن نائبة الرقيب اسيانينا راقدات يتشمسن فوق مشمع ميرى وكما ولدتهن امهاتهن . لو انهن تصايحن ، مثلا ، اصطناعا للوقار . . . لا ، بل دسسن انوفهن فى المشمع وحبسن انفاسهن ، فاضطر فيدوت يفجرافيتش للتراجع ، كصبى يتسلل من حديقة الجيران . ومنذ ذلك اليوم وهو يسعل عند كل زاوية ، وكانه مصاب بالسعال الديكى .

اما اسيانينا هذه فقد ميزها بين الفتيات من قبل . كانت صارمة . لا تبتسم ابدا ، بل تحرك شفتيها قليلا ، بينما تظل عيناها جادتين . كانت فتاة غريبة ، ولذلك استعلم عنها فيدوت يفجرافيتش بحذر عن طريق ربة داره ، وان كان يعرف ان هذا التكليف لن يسرها على الاطلاق . وبعد يوم قالت له ماريا نيكيفروفنا وهى تكز على شفتيها :

– انها ارملة . عز الطلب . تستطيع ان تلاعبها كما تشاء .

ولزم الشاويش الصمت ، فلن يقنعها على اية حال . واخذ الفاس وخرج الى الفناء . ليس هناك فرصة افضل للتفكير من تقطيع الحطب ، وقد تجمعت لديه افكار كثيرة ينبغى ان يرتبها .

طبعا الضبط والربط فى المقام الاول . حسنا ، المجندات لا يشربن ولا يغازلن ربات الدور . كل ذلك صحيح من الخارج . اما من الداخل فهناك فوضى :



– لودا ، فيرا ، كاتنكا * . . . الى الحراسة . . كاتنكا انت رئيسة الحرس !

هل هذا امر عسكرى . ان تشكيل الحرس ينبغى ان يتم بكل صرامة ، وطبقا للوائح . اما هذا فسخرية كاملة . يجب تغيير ذلك . كيف . حاول ان يتحدث فى هذا الامر الى اعلاهن رتبة ، الى كيريانوفا ، ولكنها لا تملك سوى رد واحد لا يتغير :

– عندنا تصريح بذلك يا شاويش . من القائد . شخصيا . ويتضاحكن . . . الملاعين !

– تبذل جهدك يا فيدوت يفجرافيتش ؟

والتفت الى جهة الصوت . كانت جارتهم بولينا يجوروفا تطل فى الفناء . اكثر النساء عهرا . . . فى الشهر الماضى احتفلت بعيد ميلادها اربع مرات !

– لا تتعب نفسك يا فيدوت يفجرافيتش . . . لم يبق لدينا سواك . . . لمتابعة النسل .

وتقهقه ، وقبة ثوبها مفتوحة ، فتدلت مفاتنها على السور ، مثل رغيفين خرجا من الفرن .

– سوف تمر على الدور كالراعى منذ الآن . اسبوع فى هذه الدار ، واسبوع فى اخرى . لقد اتفقنا ، نحن النساء ، بشانك .

– استحى يا بولينا يجوروفا . اانت زوجة مقاتل ام غانية ؟ تصرفى اذن كما ينبغى .

– ستغفر لنا الحرب كل شيء يا يفجرافيتش . . . جنودا وزوجات جنود .

يا للعذاب ! ينبغى ترحيلها من هنا ، ولكن كيف . اين هى السلطات المدنية . ليست له سلطة على هذه المراة ، وقد استوضح ذلك من الرائد المزمجر .

نعم ، لقد تجمع لديه من الافكار ما لا يقل عن مترين مكعبين . ولا بد من بحث كل فكرة بطريقة خاصة . . . خاصة تماما . . . ان ما يعوقه كثيرا من ذلك انه شخص غير متعلم تقريبا .

---

* كاتنكا : تدليل للاسم الكامل يكاتيرينا . **المترجم** .

طبعا يستطيع ان يقرا ويكتب ، ويعرف الحساب فى حدود الصف الرابع ، لانه فى نهاية هذا الصف الرابع بالذات قتل الدب اباه . آه لو عرفت هؤلاء الفتيات بحكايـــة الدب هذه لما شبعن من الضحك ! انظر الى تصاريف القدر : لم يمت من الغازات السامة فى الحرب العالمية الاولى ، ولا بحد السيف فى الحرب الاهلية ، ولا برصاصة من احد الكولاك ، ولا حتى مات ميتة طبيعية ، وانما قتله دب ! ربما لم تر هؤلاء الفتيات الـــدب الا فى حديقـــة الحيوانات . . .

لقد صعدت يا فيدوت فاسكوف من مجاهل الغابات الى منصب القومندان . اما هن فمتعلمات . . لا يغرك انهن مجندات عاديات . «تسابق» ، و«مسواة التسديد» ، و«زاوية الانحراف» . . . واضح من حديثهن انهن تخرجن من الصف السابع ، بل وربما التاسع . اطرح اربعة من تسعة ، الباقى خمسة . وهكذا فانـــت متخلف عنهن باكثر مما لديك . . .

كانت افكارا محزنة ، ولذلك انهال فاسكوف على الخشب فى غل . ومن المذنب فى ذلك ؟ لا احـــد ، اللهم الا ذلك الدب الاحمق . . .

شىء غريب . . . كان حتى الآن يعتبر حياته موفقة . طبعا ليس اربعة وعشرين قيراطا ، لكن لم يكن هناك ما يستدعـــى الشكوى . فرغم كل شىء استطاع بصفوفه الاربعة التى لم يكملها ان يتخرج من المدرسة الحربية وان يصل خلال عشر سنوات الى رتبة شاويش . من هذه الناحية لم تكن هناك خسائر ، اما مـــن النواحى الاخرى ، فقد حدث ان القدر احاطه بالقذائف ، ووجـــه اليه ضربتين فى الصميم من جميع فوهات مدافعه ، ولكن فيدوت يفجرافيتش صمد رغم كل شىء . . . نعم صمد . . .

فقبل الحرب الفنلندية * بقليل تزوج من ممرضة فى مستشفى الحامية . كانت امراة حية مغرمة بالغناء والرقص واحتساء الخمر ،

---

* المقصود هنا الحرب بين الاتحاد السوفييتى وفنلندا فى الفترة من ٣٠ نوفمبر ١٩٣٩ الى ١٢ مارس ١٩٤٠ والتي انتهت بتوقيع معاهدة صلح بين البلدين . **الناشر** .



لكنها انجبت له ولدا ، اسميـــاه ايجور . . . ايجور فيدوتيتش فاسكوف . وعند ذلك بدأت الحرب الفنلندية ، فتوجه فيدوت الى الجبهة . وعندما عاد منها بميداليتين تلقى اول صدمة : فبينما كان هناك على وشك الهلاك وسط الثلوج كانت زوجته تخونه مع بيطرى اللواء ، ثم رحلت مع عشيقها الى الجنوب . وطلقهـــا فيدوت يفجرافيتش على الفور واخذ الصبى منها بحكم من المحكمة وارسله الى امه فى القرية . وبعد عام توفى ابنه الحبيب . ومنذ تلك اللحظة لم يبتسم فاسكوف سوى ثلاث مرات : للجنرال الذى قلده الوسام ، وللجراح الذى استخرج له الشظية من كتفه ، ولربة الدار التى يعيش عندها ، ماريا نيكيفروفنا ، لفطنتها .

وبسبب هذه الشظية حصل منصبـــه الحالى ، فقد بقى فى المخزن بعض المواد ، ولكن القيادة لم تترك له حراسا وانشأت منصب القومندان وعهدت اليه بحراســـة المخزن . فكان يتفقده ثلاث مرات فى اليوم ، ويتحسس الاقفال ، ثم يدون فى الدفتر الذى افتتحه من تلقاء نفسه عبارة لا تتغير : «تم تفقد الموقع ، ولا مخالفات» ويسجل زمن التفقد بالطبع .

كانت الخدمة العسكرية بالنسبة لفاسكوف تمضى فى هدوء . كانت تمضى فى هدوء تقريبا حتى هذا اليوم ، اما الآن . . . وتنهد الشاويش .

## ٢

من بين جميع الاحداث التى شهدتها ريتا موشتاكوفا قبل الحرب كانت تذكر اكثر ما تذكر الحفل المدرسى ، تلك المقابلة التى اجريت مع ابطال حرس الحدود . ورغم انه لم يكن فى الحفل ابطال مشهورون الا ان ريتا ظلت تذكر تلك الامسية وكانهـــا انتهت لتوها ، وكان الملازم اسيانين الخجول لا يزال يسير الى جانبها فوق الارصفة الخشبية المدويـــة فى تلك البلدة الصغيرة المجاورة للحدود . ولم يكن الملازم قد قام بايـــة بطولة بعد ، وقد ضموه الى عضوية الوفد صدفة فكان يشعر بالخجل الشديد .

لم تكن ريتا ايضا من الفتيات الجريئات . . . فجلست فى الصالة دون ان تشارك لا فى الترحيب بابطال ولا فى عروض فرقة الهواة . وكانت مستعدة لان تنخسف بها الارض من اعلى طابق حتى اعماق قبو الجرذان ، على ان تكون هى البادئة بالحديث مع اى شخص من الضيوف يقل عمره عن ثلاثين سنة . والصدفة وحدها هى التى جعلت مجلسها بجوار اسيانين ، فجلسا جامدين خشية ان تند عنهما حركة ، ناظرين امامهما مباشرة . ثم نظم زملاء الدراسة لعبة من الالعاب ، فكان من نصيبهما اللعب معا ، ثم كان عليهما ان يرقصا رقصة الفالس ، فرقصا معا . ثم وقفا معا بجوار النافذة . ثم . . . نعم ، ثم مضى ليوصلها الى منزلها .

وهنا اقدمت ريتا على خبث فظيع ، اذ قادته عبر اطول الطرق . ولكنه سار رغم ذلك ساكنا ، ولم يفعل الا ان مضى يدخن ، وفى كل مرة كان يستاذنها فى خجل . وكان قلب ريتا يسقط فى قدميها من خجله هذا .

وحتى عند الوداع لم يتصافحا ، بل اومآ براسيهما . . . وهذا كل ما هنالك . ثم رحل الملازم الى مركز الحدود ، واخذ يرسل لها كل سبت رسالة قصيرة للغاية ، فترد عليه كل احد برسالة طويلة . واستمر هذا حتى الصيف . وفى يونيو جاء الى البلدة فى اجازة ثلاثة ايام ، وقال ان الحالة متوترة على الحدود ، ولن تكون هناك اجازات منذ الآن ، ولذلك ينبغى ان يذهبا فورا الى مكتب تسجيل الزواج . ولم تدهش ريتا البتة ، ولكن البيروقراطيين الجالسين فى المكتب رفضوا تسجيل زواجهما بدعوى انه ينقصها خمسة شهور ونصف لتبلغ الثامنة عشرة . فتوجها الى قومندان المدينة ، ومنه الى والديها ، وفى النهاية حصلا على ما كانا يريدان .

كانت ريتا اول من تزوج من فتيات صفها . ولم تتزوج رجلا والسلام ، بل ضابطا فى الجيش الاحمر ، ومن حرس الحدود بالذات . ومن المستحيل ان تكون هناك فى العالم فتاة أسعد منها .

وفى مركز الحدود انتخبوها على الفور فى المجلس النسائى وسجلوا اسمها فى كل الجمعيات . وبدأت ريتا تتعلم تضميد



الجرحى والرماية والفروسية والقاء القنابل اليدوية والوقاية من الغازات السامة . وبعد عام انجبت ولدا (اسمياه «البرت» ودللاه بـ«اليك») ، وبعد عام آخر اندلعت الحرب .

فى ذلك اليوم ، اول ايام الحرب ، كانت واحدة من بين اولئك القلائل الذين لم يفقدوا رباطة الجاش او يستسلموا للذعر . ولقد كانت عموما هادئة وعاقلة . بيد ان هدوءها فسر آنذاك هكذا : لقد ارسلت ريتا ابنها فى شهر مايو الى والديها ، ومن ثم كان بوسعها ان تتفرغ الآن لانقاذ ابناء الآخرين .

صمد مركز الحدود سبعة عشر يوما . وكانت ريتا تسمع ليل نهار صوت الطلقات من بعيد . لقد كان المركز لا يزال حيا ، ومعه كان يحيا الامل بان زوجها لم يصبه مكروه ، وبان رجال الحدود سيصمدون حتى تصلهم وحدات الجيش ، ومن ثم يردون معا على الضربة بالمثل ، فقد كانت الاغنية المفضلة فى مركز الحدود : «اقبل الليل ، واختفت فى الظلام الحدود ، غير ان الغريب لن يعبرها ، لا ولن نسمح للعدو الحقود ، ان يدس انفه فى ثراك يا بستاننا المعبود . . .» . ولكن الايام مضت ولم تصل النجدة . . . وفى اليوم السابع عشر صمت مركز الحدود .

كانوا يريدون ارسال ريتا الى المؤخرة بينما طلبت هى ان تقاتل . كانوا يطردونها ويدفعونها بالقوة الى عربات الشحن ، ولكن هذه المرأة العنيدة ، زوجة نائب قائد المركز الملازم اول اسيانين ، كانت تاتى فى اليوم التالى الى مقر اركان المنطقة المحصنة . واخيرا قبلوها كممرضة ، وبعد نصف عام أرسلوها الى مدرسة المدفعية المضادة للطائرات التابعة للواء .

اما الملازم اول اسيانين فقد استشهد فى اليوم الثانى لبدء الحرب فى احدى الهجمات الصباحية المضادة . وعلمت ريتا بذلك فى يوليو ، عندما جاء احد العرفاء من المركز الذى احتل ، بعد ان افلت من هناك بمعجزة .

وقدرت الرئاسة ارملة بطل الحدود العابسة حق قدرها ، فورد اسمها فى الاوامر واشير اليها كقدوة ، ولذلك استجابت لرغبتها بارسالها بعد التخرج من المدرسة الى ذلك القطاع الذى كان مقرا لمركز الحدود ، وحيث استشهد زوجها فى معركة ضارية

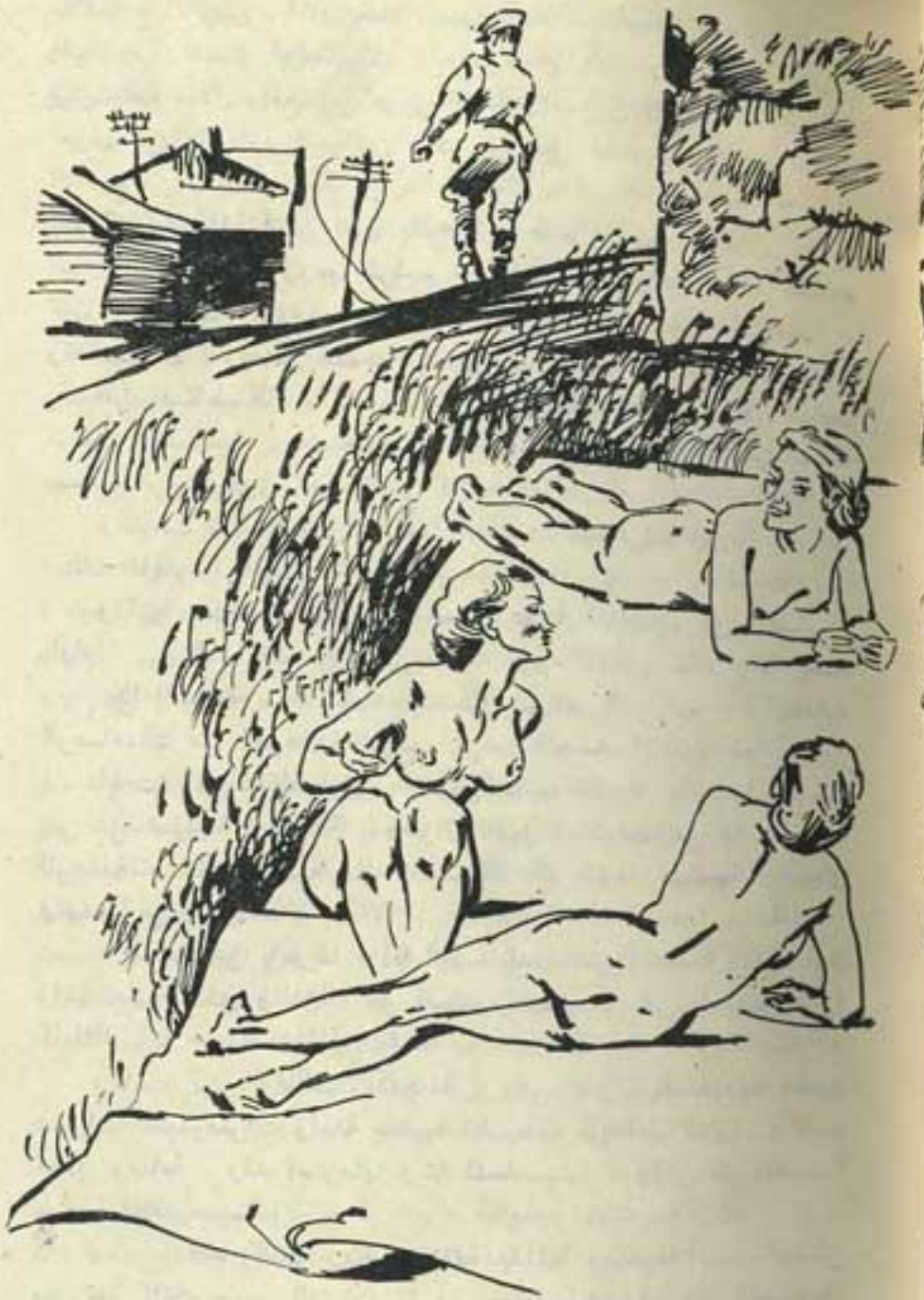

بالسلاح الابيض . كان خط الجبهة فى ذلك المكان قد تقهقر قليلا ، وتشبث بالبحيرات واحتمى بالغابات وانغرز فى الارض وثبت فى مكان واقع بين مركز الحدود السابق وتلك البلدة التى تعرف فيها الملازم اسيانين ذات يوم على تلميذة من الصف التاسع . . .

كانت ريتا تشعر الآن بالرضا ، فقد بلغت ما كانت تصبو اليه . حتى مصرع زوجها تراجع الى اقصى زوايا الذاكرة : فقد كان لديها عمل ، وواجبات ، وامامها من تصب عليه كراهيتها . وتعلمت ان تكره فى صمت وبقسوة ، ورغم ان طاقمها لم يتمكن بعد من اسقاط طائرة للعدو ، الا انها استطاعت ان تسقط منطادا فاشستيا . اشتعلت فيه النار فتكرمش ، وقفز من سلته مصحح الرمى وهوى نحو الارض كالحجر .

وصرخت فيها فتيات المدفعية المضادة للطائرات :

– اضربى يا ريتا . . . اضربى !

ولكنها تمهلت ، دون ان تحول علامة التنشين عن النقطة الهاوية . وعندما فتح الالمانى مظلته قرب الارض تماما وهو يحمد ربه على السلامة ، ضغطت ريتا على الزناد بانسياب . وانطلقت الرصاصات من الفوهات الاربع فمزقت الجسد الاسود تماما ، وتصايحت الفتيات اعجابا ، وانهلن عليها تقبيلا ، بينما رسمت هى على شفتيها ابتسامة . وطوال الليل استولت على بدنها الرعشة ، فظلت نائبة قائد الفصيلة كيريانوفا تسقيها الشاى وتهدئ من روعها :

– ستتشفين يا ريتا . انا ايضا كدت اموت عندما قتلت اول واحد منهم ، اى والله . ظل الملعون يطاردنى فى الحلم شهرا كاملا . . .

وكانت كيريانوفا فتاة شجاعة . وفى الحرب الفنلندية قطعت عشرات الكيلومترات زاحفة بحقيبة الاسعاف فى خط النار . وكانت تحمل وساما . وقد احترمتها ريتا لشخصيتها ، ولكن لم تنشأ بينهما علاقة حميمة .

وعموما فقد كانت ريتا مستقلة بذاتها ومنعزلة . . . ففى مفرزتها كانت جميع الفتيات تقريبا صغيرات فى عمر اعضاء



الكومسمول . وليست القضية انهن اصغر منها . . . كلا ، ولكنهن كن غير ناضجات . لم يعرفن الحب ولا الامومة ، ولا الفجيعة او الفرحة ، وكن يثرثرن عن الملازمين والقبلات ، وكان ذلك يثير ريتا الآن .

صاحت باقتضاب وهى تسمع الثرثرة الدورية :

– الى النوم . . لو سمعت هذا الهراء ثانية فساعطيك نوبات حراسة حتى الشبع !

فعاتبتها كيريانوفا بتراخ :

– لا داعى يا ريتا . . ليثرثرن . . . فهذا مسل .

– لو احببن فلن اعترض بكلمة . . . ولكنى لا افهم هذه القبلات فى الزوايا المظلمة .

فابتسمت كيريانوفا قائلة :

– كونى لهن قدوة .

فصمتت ريتا على الفور . لم تتصور ابدا امكانية حدوث ذلك ، فلم يكن ثمة وجود للرجال بالنسبة لها . كان هناك رجل واحد ، ذلك الذى قاد رجال الحدود القلائل فى فجر اليوم الثانى للحرب فى معركة بالسلاح الابيض . كانت تشد على خصرها حزام الجندية ، حتى آخر ثقب فيه .

قبل حلول مايو ذاق الطاقم الامرين : ظل ساعتين يقاتل طائرات «المسرشميت» السريعة . كانت الطائرات تاتى منقضة من ناحية الشمس وتصلى المدافع بنار حامية . وقتلت مناولة القذائف ، تلك الفتاة البدينة ذات الانف الافطس . لم تكن جميلة ، وكانت دائما تمضغ شيئا ما بعيدا عن الاعين . واصيبت اثنتان بجراح خفيفة . وحضر قوميسير الوحدة ليشهد الجنازة . وناحت الفتيات بصوت عال . ثم اطلقت طلقات التحية فوق القبر ، وبعد ذلك انتحى القوميسير بريتا جانبا وقال لها :

– لا بد من امداد المفرزة .

فصمتت ريتا .

– ان مجموعتكم مجموعة طيبة يا مرجريتا ستيبانوفنا . والمراة فى الجبهة ، كما تعلمين ، محور اهتمام خاص . . . وقد يحدث ان تخونها اعصابها .

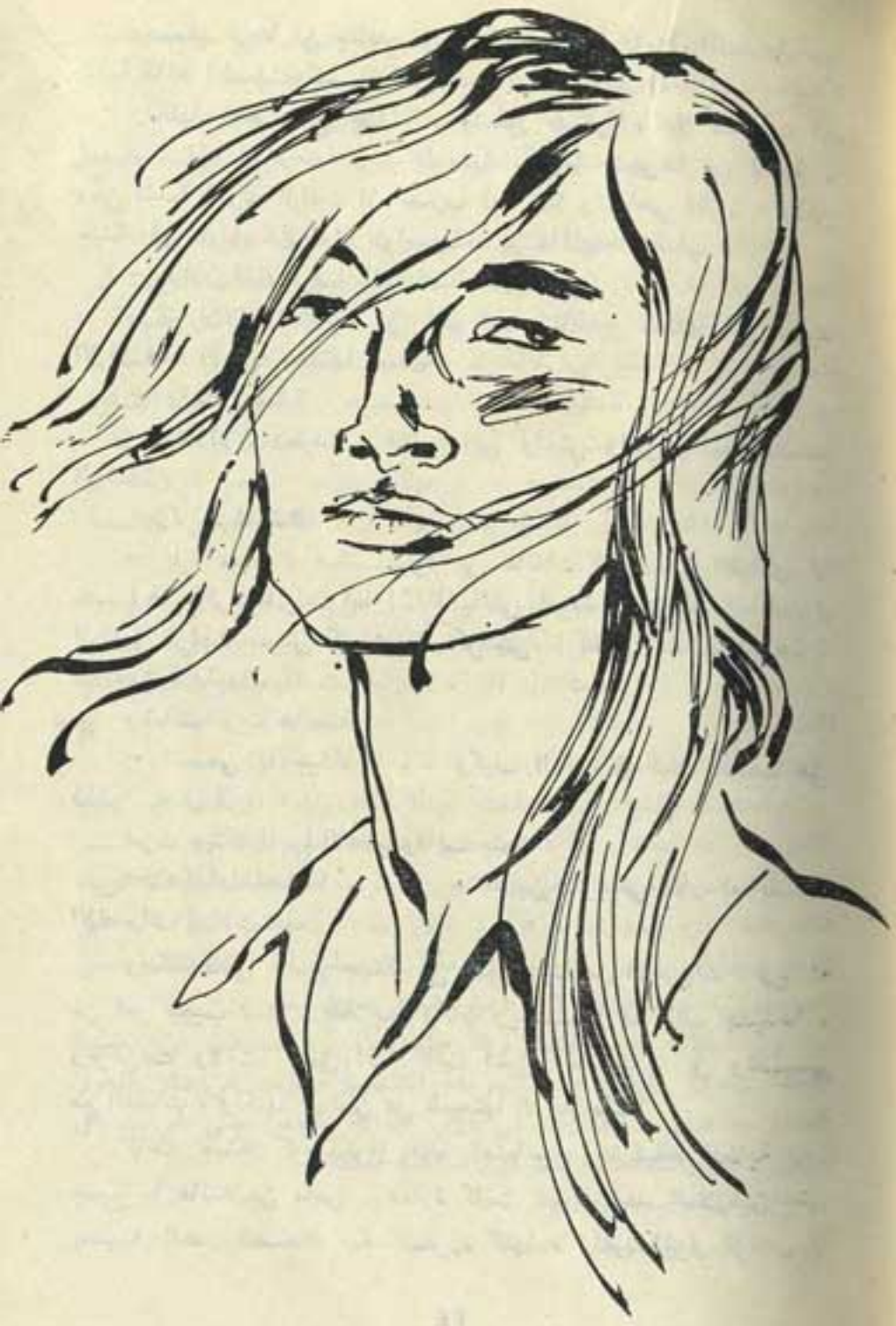

ولزمت ريتا الصمت من جديد ، فتململ القوميسير فى وقفته ، ثم اشعل لفافة وقال بصوت خافت :

– هناك عقيد فى الاركان . . . متزوج بالمناسبة . . . اتخذ لنفسه – كما يقال – صديقة ، وعندما علم عضو المجلس العسكرى بذلك ضيق الخناق على هذا العقيد ، وامرنى ان اعهد الى تلك «الصديقة» بعمل ما بين جماعة طيبة .

فقالت ريتا :

– حسنا ، ارسلها الينا .

وفى الصباح راتها فاعجبت بها اشد الاعجاب . كانت طويلة ، حمراء الشعر ، بيضاء البشرة . اما عيناها فكانتا كعيون الاطفال : خضراوين ، مستديرتين كطبقى فنجان .

– المجندة يفجينيا كوميلكوفا تحت تصرفكم . . .

وكان اليوم الذى وصلتهم فيه يوم الاستحمام . وعندما جاء دورهن وقفت الفتيات فى مدخل الحمام ينظرن الى الوافدة الجديدة وكانهن ينظرن الى معجزة :

– انت جنية البحر يا جينكا ! •

– بشرتك شفافة يا جينكا !

– جينكا . . . تصلحين نموذجا لتمثال !

– جينكا . . تستطيعين الاستغناء عن السوتيان !

– اوه ، مكانك فى المتحف يا جينكا . . . فى صندوق زجاجى مبطن بالقطيفة السوداء . . .

وتنهدت كيريانوفا قائلة :

– يا لها من تعيسة . . امثل هذا الجسم يلف فى معطف عسكرى ! هذا شىء لا يطاق .

فقالت ريتا بحذر :

– انها جميلة . . . والجميلات نادرا ما يكن سعيدات .

فضحكت كيريانوفا ضحكة خفيفة :

– تلمحين الى نفسك ؟

---

• جينيا ، وجينكا اسما تدليل مشتقان من يفجينيا . المترجم .

وصمتت ريتا من جديد . . . كلا ، لم توفق فى التصادق مع نائبة قائد الفصيلة كيريانوفا . . . لم توفق على الاطلاق .

ولكنها نجحت مع جينكا ، بشكل طبيعى ، بلا مقدمات او تمهيد . فقد صارحتها ريتا بقصتها ، ربما لتبهرها من ناحية ، ومن ناحية اخرى ارادت ان تضرب لها مثلا وتتباهى قليلا . ولكن جينكا لم تشفق عليها او تواسيها ، بل قالت باقتضاب :

– واذن فلك ايضا حسابك الخاص معهم .

ورغم ان ريتا كانت على علم تام بتفاصيل قصتها مع العقيد الا ان هذه الاجابة جعلتها تسال :

– وانت ايضا ؟

– انا الآن وحيدة . قتلوا امى واختى واخى بالمدفع الرشاش .

– كانت غارة ؟

– بل اعدام . قبضوا على عائلات الطاقم القيادى ثم حصدوها بالرشاش . اما انا فخباتنى امراة استونية فى المنزل المقابل فرايت بعينى كل شىء . كل شىء ! اختى سقطت آخرهم . ثم اجهزوا عليها .

وسالتها ريتا هامسة :

– اسمعى يا جينكا . . . وكيف العقيد ؟ كيف اقدمت على ذلك . . .

هزت جينكا تاجها الاحمر وقالت بتحد :

– هكذا اقدمت ! . . هل ستبدلين بتربيتى الآن ام بعد الانصراف ؟

وهكذا قضى مصير جينكا على تميز ريتا عن الاخريات . ويا له من امر عجيب . . . لقد بدا وكان ريتا قد ذاب جليدها ، وتزعزعت ولانت . حتى انها كانت احيانا تضحك ، بل وتغنى مع الفتيات ، ولكنها لم تكن على طبيعتها الا مع جينكا .

كانت جينكا كوميلكوفا فتاة اجتماعية و«شقية» للغاية رغم جميع ما عانته من مآس . فتارة كانت تعابث احد الملازمين حتى يصيبه الخدر فتضحك منه المفرزة كلها ، وتارة اخرى ترقص فى



فترة الراحة رقصة غجرية حسب جميع الاصول على وقع دندنة الفتيات ، او تبدا فى سرد قصة فيصغى الجميع باهتمام .

وكانت كيريانوفا تتنهد بحسرة وتقول :

– مكانك على خشبة المسرح يا جينكا . امراة كهذه تضيع هدرا .

وهكذا انتهت العزلة التى ظلت ريتا تحافظ عليها بعناية ، فقد قلبت جينكا كل شىء راسا على عقب . وكان لديهن فى المفرزة فتاة رقيقة الحال اسمها جالا تشيتفرتاك . كانت نحيلة ، حادة الانف ، بضفيرتين كالحبال وصدر املس كصبى . فاخذتها جينكا الى الحمام ونظفتها وصففت لها شعرها واصلحت لها السترة العسكرية فكانما ولدت جالكا من جديد . . . لمعت عيناها ، وظهرت البسمة على شفتيها ... حتى صدرها تبرعم . ولما لم تعد جالكا هذه تفارق جينكا خطوة واحدة ، فقد اصبحن ثلاثة معا : ريتا وجينكا وجالكا .

قابلت الفتيات المجندات خبر نقلهن من خط النار الى المؤخرة لحماية ذلك الهدف بثورة عارمة . كانت ريتا وحدها هى التى لزمت الصمت ، وذهبت الى الاركان وتطلعت الى الخريطة ثم قالت :

– ارسلوا مفرزتى .

ودهشت الفتيات ، واعلنت جينكا العصيان ، ولكنها فى اليوم التالى تغيرت فجاة ، فاخذت تحض الفتيات على الانتقال . ولم يفهم احد لماذا وما الداعى ولكنهن صمتن ، فما دامت جينكا تريد ذلك فهو اذن ضرورى ، اذ كن يثقن بها . وسكتت المجادلات على الفور واخذن يتاهبن للرحيل . وما ان وصلن الى التحويلة ، حتى اصبحت ريتا وجينكا وجالا يشربن الشاى بدون سكر .

وبعد ثلاثة ايام اختفت ريتا من الموقع . تسللت من حظيرة الاطفاء ومرت كالظل عبر التحويلة الناعسة وذابت فى دغل الحور المبلل بالندى . وسارت فى درب الغابة المقفر حتى خرجت الى طريق السيارات فاستوقفت اول شاحنة قادمة .

فسالها رقيب ذو شوارب :

– الى اين ايتها الحسناء .

كانت السيارات تذهب ليلا الى المؤخرة لجلب الذخيرة وكان يرافقها اشخاص بعيدون عن الروح العسكرية واللوائح .

– اوصلونى الى المدينة .

وامتدت الايدى من صندوق السيارة ، فلم تنتظر ريتا الاذن بالصعود ووضعت قدمها على العجلة ، وفى لحظة كانت هناك . اجلسوها على مشمع وغطوها بسترة ثقيلة :

– نامى قليلا يا فتاة . . .

وفى الصباح عادت الى الموقع . وباشرت واجباتها المألوفة .

لم يرها احد ، ولكن كيريانوفا عرفت بالامر فقد بلغوها . ولم تقل شيئا ، ولكنها ضحكت بينها وبين نفسها ساخرة :

– اتخذت لنفسها عشيقا هذه المتكبرة . فليكن . . . ربما لانت .

ولم تبلغ فاسكوف شيئا . وعلى العموم فلم يكن احد يخشاه وخاصة ريتا . كن ينظرن اليه وكانه جذع شجرة علاه الطحلب يتحرك بين دور التحويلة ولا تحتفظ ذاكرته اللغوية الا بعشرين كلمة ماخوذة من اللوائح العسكرية . فمن ذا الذى ياخذه ماخذ الجد ؟

ولكن الاصول هى الاصول ، وخاصة فى الجيش . وكانت هذه الاصول تقتضى الا يعرف احد شيئا عن رحلات ريتا الليلية سوى جينكا وجالكا تشيتفرتاك .

كن يرسلن الى البلدة بالسكر وقطع البسكويت الجاف ومسحوق الحنطة المركز ، واحيانا علب اللحم المحفوظ . وكانت ريتا – وقد اطار التوفيق صوابها – تسافر الى البلدة ليلا مرتين او ثلاث مرات فى الاسبوع ،فشحبت واصابها الهزال . وهمست جينكا فىاذنها بعتاب :

– كفاك طيشا . ربما اوقفتك دورية ، او سال عنك قائد ما ، وعندئذ ستقعين . . .

– اسكتى يا جينكا . . . اننى محظوظة !

وكانت عيناها تشعان بالسعادة ، فهل يمكن ان تتحدث معها جديا ؟ كانت جينكا تشعر بالكدر فتقول لها :

– احذرى يا ريتا !



وفطنت ريتا بسرعة الى ان كيريانوفا على علم برحلاتها . احست بذلك من نظراتها وابتساماتها الساخرة . ووخزتها هذه الابتسامات كالنار ، وكانها قد خانت فعلا زوجها الشهيد . واسود وجهها غضبا وارادت ان تلقنها درسا ، ولكن جينكا امسكت بها وسحبتها بعيدا وقالت لها :

– دعيها يا ريتا . . . وعيها تظن ما تشاء !

وثابت ريتا الى رشدها : هذا صحيح ، فلتختلق كيريانوفا ما تشاء من الافتراءات ، على ان تلزم الصمت فلا تزعجها ولا تبلغ فاسكوف ، الذى لن يكف عن المماحكة والمساءلة حتى تظلم الدنيا فى عينيها . وهناك مثال على ذلك . فقد قبض على فتاتين من المفرزة الاولى خلف النهر ، فظل اربع ساعات – من الغداء حتى العشاء – يتلو عليهما موعظة خلقية مستشهدا بنصوص اللوائح والتعليمات والتوصيات حتى جفت مآقى الفتاتين من كثرة البكاء . واقسمتا الا تذهبا الى ما وراء النهر ، بل والا تخرجا من الفناء .

ولكن كيريانوفا ما زالت صامتة حتى الآن .

كانت الليالى ساكنة بيضاء طويلة . . . وكان الغسق مشبعا برائحة الاعشاب المزهرة ، فكانت المجندات يسهرن وهن يغنين بجوار حظيرة الاطفاء حتى تؤذن ديوك الفجر . ولم تعد ريتا تخفى امرها الا عن فاسكوف فقط . كانت تمكث ليلتين ثم تختفى فى الليلة الثالثة بعد العشاء مباشرة ولا تعود الا قبيل ساعة الاستيقاظ .

وكانت رحلات العودة احب شىء اليها . عندها يكون قد زال خطر ان تكتشفها الدورية ويصبح بوسعها ان تسير حافية القدمين بهدوء على العشب الندى البارد الى درجة الالم وحذاؤها الطويل معقود ومدلى خلف ظهرها . تسير وتفكر فى اللقاء وفى شكاوى امها وفى اجازتها التالية بدون اذن . وكانت تحس بالسعادة لانها ستستطيع ان تدبر الموعد التالى بنفسها ، بغض النظر ، او تقريبا بغض النظر عن رغبة الآخرين .

ولكن الحرب كانت دائرة ، تتصرف فى مقادير البشر حسب هواها . فكانت هذه المقادير تتشابك وتختلط بصورة عجيبة وغير مفهومة . وبينما كانت نائبة الرقيب مرجريتا اسيانينا تخدع

قومندان التحويلة ١٧١ الهادئة ، لم تكن تدرى ان التوجيه الصادر عن الخدمات الامبراطورية الالمانية «س د» رقم س ٧٠٢/٢١٩ والمؤشر عليه «**للقيادة فقط**» قد تم توقيعه بالفعل واصبح نافذ المفعول .

## ٣

وكان الفجر هنا هادئا ، هادئا . . .

سارت ريتا حافية القدمين ، وحذاؤها المعلق يتارجح وراء ظهرها . وزحف من المستنقعات ضباب كثيف كان يبعث البرودة فى القدمين ويترسب على الملابس . واخذت ريتا تتصور بسرور كيف ستجلس على جذع الشجرة المعروف قبل ان تصل الى التحويلة ، وترتدى جوربها الجاف ثم الحذاء . كانت على عجل لانها ضيعت وقتا طويلا فى البحث عن سيارة تقلها فى طريق العودة ، وكان الشاويش فاسكوف يستيقظ قبل الفجر ليتفقد اقفال المخزن الذى كان على ريتا ان تصل اليه ، فجذع الشجرة كان على بعد خطوتين من حائطه الخشبى ، خلف الشجيرات .

كان عليها ان تمر بمنعطفين ، ثم تسير مباشرة عبر دغل الحور ، قبل ان تصل الجذع . ومرت بالمنعطف الاول ثم . . . تسمرت فى مكانها . . .كان هناك شخص يقف على الطريق .

كان واقفا يتطلع الى الخلف . . . طويل القامة ، فى معطف مطر مبرقش منتفخ على ظهره كالحدبة . وكان فى يده اليمنى لفة مستطيلة مشدودة بالاحزمة ، وعلى صدره تدلى رشاش .

ودلفت ريتا الى خميلة فاهتزت اغصانها ورشت عليها قطرات الندى ، ولكنها لم تشعر بذلك . كانت لا تكاد تتنفس وهى تتطلع من خلال الاوراق الربيعية القليلة الى ذلك الرجل الغريب الذى وقف ساكنا ، كانما فى حلم ، وسد عليها الطريق .

ثم خرج من الغابة رجل آخر ، اقصر من زميله قليلا ، وعلى صدره ايضا تدلى رشاش ، وفى يده لفة مماثلة . وسارا نحوها مباشرة فى صمت ، يخطوان فى احذية طويلة باربطة على العشب المبلل بالندى دون ان يصدر عن خطواتهما صوت .



وحشرت ريتا قبضتها فى فمها حتى احست بالالم من وخز اسنانها . وتحاملت على نفسها وهى تضرع الا تتحرك او تصرخ او تندفع عبر الغصون على غير هدى ! ومرا بجوارها . ولمست كتف احدهما الغصن الذى كانت مختبئة خلفه . مرا فى صمت ودون ان يصدر عن خطوهما صوت . . . مرا كظلين ، ثم اختفيا .

وانتظرت ريتا قليلا . لا احد . فتسللت بحذر ، وعبرت الطريق ثم دلفت الى خميلة ، ووقفت تتنصت .

كان الهدوء شاملا .

وانطلقت تجرى مباشرة ، وانفاسها تتحشرج ، والحذاء يلطم ظهرها . وركضت عبر المنازل غير عابئة بشىء ، واخذت تدق بشدة الباب المغلق على النائمين .

– يا قومندان . . . يا شاويش !

واخيرا فتح الباب . كان فاسكوف واقفا على العتبة فى سرواله العسكرى وخفه المنزلى دون جورب ، وفى قميص داخلى ذى اربطة . وطرف جفناه الناعسان :

– ماذا ؟

– الالمان فى الغابة !

– حسنا . . . – وزر عينيه بشك . لا بد انها تدبر له مقلبا – ومن اين عرفت ؟

– رايتهم بعينى . اثنان . برشاشات ومعاطف تمويه . . . كلا ، يبدو انها لا تكذب . عيناها مذعورتان . . .

– انتظرى هنا .

واندفع الشاويش الى الداخل ، فارتدى الحذاء والسترة العسكرية على عجل ، كان حريقا شب . وجلست صاحبة الدار فى فراشها فى قميص النوم فاغرة فاها . ثم سالت :

– ماذا حدث يا فيدوت يفجرافيتش ؟

–لا شىء . هذا لا يخصك .

وقفز الى الخارج وهو يشد على خصره حزام المسدس .

كانت اسيانينا واقفة فى نفس المكان ، وحذاؤها معلق خلف كتفيها كما كان . ونظر الشاويش آليا الى ساقيها . . . كانتا حمراوين مبللتين . والتصقت باصبع قدمها الكبيرة ورقة شجرة

ذابلة من العام الماضى . اذن فقد كانت تتسكع فى الغابة حافية ، حاملة حذاءها على ظهرها . واذن فهكذا يحاربون الآن .

– لتتاهب المجموعة ! انذار حربى ! استدعى كيريانوفا ! بالخطوة السريعة !

اندفعا فى اتجاهين مختلفين : هى الى حظيرة المطافىء ، وهو الى كشك التحويل حيث التليفون . آه لو يكون الاتصال سليما ! . .

– يا صنوبر ، يا صنوبر . . . آه ، يا للشيطان . . . اما انهم نائمون ، او ان الخط معطل . . . يا صنوبر ! . . يا صنوبر ! . .

– الصنوبر على الخط .

– ١٧ يتحدث . اعطنى ٣ . . . بسرعة . . . حالة طوارئ ! !

– ساعطيك ٣ ، لا تصرخ . نعرف طوارئك . . .

فحت السماعة وخشخشت مدة طويلة ، ثم جاء صوت من بعيد :

– اهو انه يا فاسكوف ؟ ماذا حدث عندكم ؟

– نعم انا يا رفيق ٣ . الالمان فى الغابة بجوار الموقع . اكتشفناهم اليوم . عددهم اثنان .

– من الذى اكتشفهم ؟

– نائبة الرقيب اسيانينا .

ودخلت كيريانوفا الى الكشك . بدون عمرة بالمناسبة . واومات براسها كانها فى حفلة .

– لقد اعلنت الانذار الحربى يا رفيق ٣ . افكر فى تمشيط الغابة . . .

– لا تستعجل بالتمشيط يا فاسكوف . لا بد من تدبر الامر . لو تركنا الموقع بدون حماية فلن يمسح على رؤوسنا احد . كيف يبدو المانك هؤلاء ؟

– تقول اسيانينا انهم فى معاطف تمويه وبرشاشات . جنود استطلاع . . .

– استطلاع ؟ وما الذى يستطلعونه عندكم ؟ هل يستطلعون كيف تنام فى حضن صاحبة الدار ؟



دائما هكذا . فاسكوف هو المذنب دائما . كل شىء على راس فاسكوف .

– ما لك سكت يا فاسكوف . فيم تفكر ؟

– افكر فى انه لا بد من اصطيادهم يا رفيق ٣ . قبل ان يذهبوا بعيدا .

– تفكيرك سليم . خذ خمسة من المجموعة وطر وراءهم قبل ان يختفى اثرهم . هل كيريانوفا هناك ؟

– انها هنا يا رفيق . . .

– اعطها السماعة .

تحدثت كيريانوفا باقتضاب : قالت «تمام» مرتين ، و«نعم» حوالى خمس مرات ، ثم وضعت السماعة ، وقالت :

– عندى امر بوضع خمسة اشخاص تحت تصرفكم .

– اعطنى تلك التى راتهم .

– ستكون اسيانينا رئيسة للجماعة .

– حسنا ، اجمعى المجندات .

– مجموعات ، يا شاويش .

يا له من جمع . . . واحدة شعرها مرسل حتى خصرها كعرف الحصان . واخرى فى شعرها اوراق ما * . يا لهن من مقاتلات ! فلتتمشط بهؤلاء الغابة ، ولتقبض على الالمان المسلحين بالرشاشات ! اما هن فيحملن ، بالمناسبة ، تلك البنادق العريقة من طراز عام ١٨٩١/١٩٣٠ .

– استرح !

– جينيا ، جالا ، ليزا . . .

فقال الشاويش باستياء :

– مهلا يا اسيانينا ! نحن ذاهبون لاصطياد الالمان لا السمك ! فهل يعرفون كيف يطلقون النار على الاقل . . .

– يعرفن .

اراد فاسكوف ان يشيح بيده فى يأس ، لكنه تنبه وقال :

– شىء آخر . . . هل بينكم من يعرف الالمانية ؟

– انا اعرف .

* لتجعيد الشعر . المترجم .

صوت رفيع خرج من الصف دون ان تتقدم صاحبته . وتملك الشاويش الاسى تماما :

– ما معنى «انا؟ » ما هذا الـ«انا» ؟ بلغى كما ينبغى !

– المقاتلة جورفيتش .

– آه ، آه . . كيف بالالمانية «ارفع يديك» .

– هاندى هوخ !

واشاح الشاويش بيـــده مع ذلك . . . لم يتماسك . . . وقال :

– مضبوط . حسنا ، هيا يا جورفيتش . . .

واصطفت هؤلاء الفتيات الخمس ، جادات كالاطفال . لكـــن ملامح الخوف فيما لا ترتسم على وجوههن .

– اعتبروا اننا سنذهب لمدة يومين . خذوا الجراية الجافة ، والذخيرة . . خمس خزانات للفرد . املأوا بطونكم اذن . البسوا الاحذية كما ينبغى ، اصلحوا هندامكم وكونوا على استعداد . امامكم اربعين دقيقة لكل ذلك . انصراف ! كيريانوفا واسيانينـــا – معى !

وبينما كانت الفتيات يتناولن الافطار اخذ الشاويش الرقيبتين الى داره فى اجتماع . ولحسن الحظ كانت ربة الدار قد انصرفت ، ولكنها مع ذلك لم ترتب الفراش : وهكذا استقرت الوسادتان عليه متجاورتين فى وئام . . . وقدم الشاويش للرقيبتين حساء غليظا ومضى يتأمل الخريطة القديمة المهترئة عند اماكن طيها .

– اذن فقد قابلتهما على هذا الطريق ؟

– هنا . . . ولمست اصبع اسيانينا الخريطة برفق . – مرا بجوارى فى اتجاه طريق السيارات .

– طريق السيارات ؟ . . وماذا كنت تفعلين فى الغابة فى الرابعة صباحا ؟

وصمتت اسيانينا .

فقالت كيريانوفا دون ان تنظر اليه :

– لقضاء حاجة ليلية .

فقال فاسكوف بغضب :



– حاجة ليلية ؟ لقد وضعت لكم بيدى مرحاضا للحاجـــات الليلية ام تراه لا يتسع ؟

وتجهمتا معا .

ثم عادت كيريانوفا تقول :

– هناك اسئلة يا شاويش لا يتحتم على المراة ان تجيـــب عليها .

فصاح القومندان ، بل وضرب براحته على المائدة برفق :

– ليس هنا نساء ! كلا ! يوجد جنـــود وقادة ، مفهوم ؟ الحرب دائرة . والى ان تنتهى فسنظل جميعا من جنس محايد . . .

– ولذلك فسريرك حتى الآن لم يرتب يا حضرة الشاويش المحايد . . .

يا لها من سم هذه الكيريانوفا ! كل كلمة حبل مشنقة !

– تقولين ذهبوا نحو طريق السيارات ؟

– فى اتجاه . . .

– كلا . . . ليس هناك ما يفعلونه على الطريق . . . لقـــد قطعت الاشجار على الجانبين منذ الحرب الفنلندية . . . هناك يمكن اصطيادهم بسرعة . . . كلا ايها القادة الصغار . . . الالمان لـــم يذهبوا الى الطريق . . . كلوا ، كلوا .

فقالت اسيانينا :

– ربما خيل الى . . . فالاغصان والضباب . . .

فرد القومندان بضيق :

– كان عليك ان ترسمى علامة الصليب اذا كان قد خيل اليك . تقولين معهم لفائف ؟

– نعم ، ويبدو انها ثقيلة فقد حملاها فى اليد اليمنـــى ، وملفوفة بعناية .

ولف الشاويش لفافة تبغ واشعلها وتمشى فى الغرفـــة . وفجاة اتضح له كل شىء . بدا واضحا لدرجة انه احس بشىء من الحرج .

– اعتقد انهم يحملون متفجرات . واذا كان الامر كذلـــك فوجهتهم ليس الطريق بل السكة الحديد . سكة حديد كيروفسكايا اذن .

فقالت كيريانوفا بشك :

– سكة حديد كيروفسكايا ليست قريبة .

– ولكن السير عبر الغابة افضل . الغابات هنا كثيفة ، تخفى جيشا ، فما بالك باثنين !

فقالت اسيانينا باضطراب :

– اذا كان الامر كذلك . . . يجب اخطار حرس السكة الحديد .

فرد فاسكوف :

– كيريانوفا ستخطرهم . موعد تقريرى اليومى فى الثامنة والنصف مساء ، اشارة التبليغ – «١٧» . كلى انت يا اسيانينا . . كلى . . . سنسير على الاقدام طوال النهار . . .

وبعد اربعين دقيقة اصطفت جماعة البحث ، ولكنها لم ترحل الا بعد ساعة ونصف ، لان الشاويش كان صارما ودقيقا :

– ليخلع الجميع احذيتهم !

بالضبط ! نصفهن ارتدين الاحذية على الجورب النسائى الرقيق ، والنصف الآخر لف الاشرطة * كما يلف وشاح العنق . بمثل هذا اللبس لا يمكن ان تقاتل كثيرا ، فبعد ثلاثة كيلومترات ستمتلىء اقدام هؤلاء المجندات بالفقاقيع الدامية . حسنا ان رئيستهن اسيانينا ارتدت الحذاء كما ينبغى ، ولكن لماذا لا تعلمهن ؟

وانفق اربعين دقيقة يعلمهن كيف تلف الاشرطة حول القدمين ، واجبرهن على تنظيف البنادق اربعين دقيقة اخرى . لا باس اذا لم يكن قد اهملنها حتى غششت فيها الحشرات ، ولكن ماذا لو انهن اضطررن لاطلاق النار ؟

اما باقى الوقت فقد خصصه لمحاضرة قصيرة ، هدفها ، فى رايه ، احاطة المقاتل بالمهمة المكلف بها .

– لا تخافوا من العدو . انه يسير فى خطوطنا الخلفية ، اذن فهو الخائف . ولكن لا تدعوه يقترب كثيرا ، لان عدونا مع ذلك

---

* هى اشرطة تلف على القدم والساق بدلا من الجورب لكى لا تتسلخ القدم . المترجم .



من جنس الرجال القوى ، ومسلح خصيصا للقتال عن قرب . واذا حدث وفوجئتم به بجواركم فمن الافضل ان تختبئوا . ولكن اياكم والهرب ، فليس هناك ما هو امتع من اصابة شخص يجرى . سيروا اثنين اثنين . ولا تتخلفوا فى الطريق او تتحدثوا . واذا قابلنا طريق فماذا نفعل ؟

فردت ذات الشعر الاحمر :

– نعرف . . . واحدة من اليسار والاخرى من اليمين .

فقال فيدوت يفجرافيتش مدققا :

– بخفية . نظام السير كالتالى : فى المقدمة حرس امامى من الرقيب الثانى ومجندة . وبعدهما بمائة متر النواة الاساسية : انا . . . – والقى نظرة على قصيلته – والمترجمة معى . وبعدنا بمائة متر : الزوج الاخير . لن نسير بالطبع بجوار بعضنا ، بل على مدى النظر . وفى حالة اكتشاف العدو او شىء آخر غامض . . . من منكم تستطيع ان تقلد الحيوانات ، او الطيور مثلا ؟

انظر الى هؤلاء الحمقاوات وهن يضحكن !

– اننى اسالكم بجدية . الاشارات الصوتية العادية ممنوعة فى الغابة ، فالالمان ايضا لهم آذان .

لزمن الصمت .

قالت جورفيتش بتردد :

– انا استطيع . . . كالحمير . . آ – آ – آ . . .

فقال الشاويش بامتعاض :

– الحمير لا ترعى هنا . حسنا ، هيا نتعلم صياح البط .

وصاح فضحكن . ولم يفهم فاسكوف سبب مرحهن المفاجىء هذا ولكنه لم يستطع ان يخفى ابتسامته ، وقال موضحا :

– هكذا ينادى ذكر البط انثاه . هيا ، حاولوا . . . – وتصايحن بسرور ، وخاصة هذه الفتاة الحمراء يفجينيا (يا لها من جميلة ، اخشى ان اقع فى حبها لا قدر الله ، جميلة حقا !) ، ولكن اسيانينا – وهذا مفهوم – فاقتهن جميعا ، يبدو انها موهوبة . وواحدة اخرى ايضا لا باس بصياحها . اظنها ليزا . قصيرة وعريضة الكتفين والفخذين ، لا تدرى ايهما اعرض . تقلد

الصياح باتقان ، وعموما فلا باس بها ، مثلها دائما تنقع . . . قوية ، مثل ثور محراث .

اين منها هاتان النحيلتان ، فتاتا المدينة : جالا تشيتفرتاك وسونيا جورفيتش المترجمة .

– سنتوجه الى بحيرة فوب . انظروا الى هنا – وتجمعن حول الخريطة . انفاسهن تلفح قفاه واذنيه ، شيء مضحك – اذا كان الالمان ذاهبين الى السكة الحديد ، فسيمرون بالبحيرة حتما . وهم لا يعرفون الطريق المختصر . اذن فسنصل قبلهم . المسافة حوالى عشرين كيلومترا . سنصل ساعة الغداء . سيكون امامنا الوقت لنستعد لان الالمان مضطرون الى الالتفاف والتخفي ، ولذلك فعليهم ان يقطعوا خمسين كيلومترا على الاقل . كل شيء واضح ايتها الرفيقات المجندات ؟

وظهرت الجدية على وجوه مجنداته :

– واضح . . .

كل ما يردنه هو ان يعرضن اجسادهن العارية للشمس ويطلقن النار على الطائرات . هذه هي الحرب في نظرهن . . .

– الرقيب الثاني اسيانينا تفتش على الذخيرة والاستعداد . بعد خمس عشرة دقيقة سنتحرك .

وترك المجندات . كان عليه ان يعرج على المنزل ، فقد عهد الى ربة الدار بجمع حاجياته . ولا بد ايضا من اخذ اشياء اخرى . فالالمان مقاتلون شرسون . في الرسوم الكاريكاتيرية فقط يسقطون بالعشرات . لا بد من الاستعداد .

وجمعت ماريا نيكيفروفنا كل ما طلب منها ، واكثر ، فوضعت في الكيس قطعة كبيرة من الشحم وسمكا مجففا . اراد ان يؤنبها لكنه عدل : لا باس ، فعددهم كبير كالمدعوين الى عرس . ودس في الكيس مزيدا من الذخيرة للبندقية والمسدس ، واخذ قنبلتين يدويتين احتمالا لما قد يحدث .

ونظرت اليه ربة الدار في خوف وصمت . كانت عيناها دامعتين . ورغم انها لم تتحرك من مكانها فقد احس انها تهم بكل جوارحها نحوه ، فلم يتمالك فاسكوف نفسه ووضع يده على راسها وقال :



– بعد غد سأعود . . . او يوم الاربعاء على اكثر تقدير .

وبكت . ايه ايتها النساء ، يا لكن من قوم مساكين ! حاجة الرجال الى هذه الحرب كحاجة الارنب الى التدخين ، اما انتن فمن باب اولى . . .

وخرج الى طرف القرية ، وتفقد «حرسه» : كانت مؤخرات البنادق تكاد تتجرجر على الارض .

وتنهد فاسكوف :

– مستعدات ؟

– مستعدات . . . – اجابت ريتا .

– اعين الرقيب الثاني اسيانينا نائبا لي طوال مدة العملية . اذكركم بالاشارات : كاكتان يعني : انتباه ، ارى العدو . ثلاث كاكات : الجميع الى .

ضحكت البنات . لقد قال عمدا : كاكتان ، ثلاث كاكات ، ولم يقل صيحات ، لكي يضحكن ، لكي يرفع معنوياتهن .

– الحرس الامامي . . . معتادا مارش !

وتحركوا .

في المقدمة اسيانينا والبدينة . انتظر فاسكوف حتى اختفيتا خلف الاغصان ، وعد في سره حتى المائة ، ثم تبعهما ومعه المترجمة التي تقوست مثل عود قصب نحيل تحت وطاة البندقية وجراب الذخيرة والكيس والمعطف الملفوف كالطوق . . . وفي المؤخرة سارت كوميلكوفا وجالا تشيتفرتاك .

## ٤

لم يكن فاسكوف قلقا من مسيرتهم نحو بحيرة فوب ، اذ كان الالمان يجلون الطريق المباشر اليها ، لان هذا الطريق اكتشفه هو بنفسه في الحرب الفنلندية . وكانت هذه المنطقة في جميع الخرائط منطقة مستنقعات ، فلم يبق امام الالمان سوى طريق واحد : الالتفاف ، عبر الغابات ، ثم الى السلسلة الزرقاء ، نحو البحيرة . ولن يستطيعوا بحال من الاحوال ان يتجنبوا المرور بهذه السلسلة . ومهما كان سير مجنداته بطيئا ، ومهما تعثرن ،

فالالمان طريقهم اطول . ولن يصلوا الى هناك قبل المساء ، وحتى ذلك الحين سيكون قد تمكن من اغلاق جميع المداخل والمخارج . سيوزع فتياته خلف الصخور ويحميهن جيدا ، ويطلق طلقة او طلقتين لرفع المعنويات، ثم يدبر معهن الامر هناك . وعموما فمن الممكن قتل احد الالمانيين ، فلم يكن فاسكوف يخشى منازلة الالمان رجلا لرجل .

كانت مجنداته يسرن بحيوية وكما هو مطلوب فيما يبدو ، فلم يكتشف القومندان ضحكات او احاديث . لكنه لم يكن يعرف كيف يراقبن الطريق . اما هو فكان يدقق النظر تحت قدميه كما لو كان يطارد دبا ، فاستطاع ان يرصد اثرا خفيفا لنعل غريب . وكان هذا الاثر يوشى بقدم مقاس ٤٤ على الاقل ، مما جعل فيدوت يفجرافيتش يستنتج انه قد تخلف عن فتى طوله حوالى مترين ووزنه اكثر من ستة بودات * . لا يجوز ابدا ان ينفرد مثل هذا الشقى بالفتيات ، حتى وان كن مسلحات . ولكن الشاويش سرعان ما اكتشف اثرا آخر ، فخمن من الاثرين ان الالمان يلتفون حول المستنقعات . كل شيء يسير كما قدر .

وقال لرفيقته :

– سيرمح الالمان كثيرا . نعم كثيرا . . . اربعين كيلومترا تقريبا .

ولم ترد المترجمة بشيء لانها كانت مرهقة للغاية ، حتى انها كانت تسحب مؤخرة البندقية على الارض . ونظر اليها الشاويش عدة مرات ، فلمح بسرعة وجهها النحيل ، غير الجميل الذى تكسوه ملامح الجد الشديد ، وفكر برثاء انه فى ظل النقص الحالى فى عدد الرجال فلن تذوق للحياة الزوجية طعما ، فسالها فجاة :

– هل ابوك وامك احياء ؟ ام انت يتيمة ؟

– يتيمة ؟ . . – وابتسمت – فى الغالب يتيمة .

– ألست على يقين ؟

– ومن على يقين من ذلك الآن يا شاويش ؟

---

* البود-١٦،٣٨ كيلوغرام . المترجم .



– معك حق . . .

وهزت كتفها النحيلة لتصلح البندقية :

– اهلى فى مينسك . وكنت ادرس فى موسكو : استعد للامتحانات واذا بالحرب . . .

– الم تصلك عنهم اخبار ؟

– كلا ، ماذا تقول . . .

– نعم . . . – ونظر اليها بتردد محاولا ان يقدر هل سيجرحها سؤاله – هل والداك من اليهود ؟

– طبيعى .

وزفر القومندان بغضب :

– طبيعى . . . لو كان طبيعيا لما سالتك .

فلم ترد المترجمة . ومضت تخطو على العشب المبلل بحذائها الخشن . وتنهدت بصوت خافت وقالت :

– ربما تمكنا من الرحيل . . .

وعصرت هذه التنهيدة قلب فاسكوف . ايتها العصفورة المسكينة . . . هل يحتمل عودك الضعيف هذه البلوى ؟ آه لو يستطيع الآن ان يسب بملء الفم هذه الحرب وبكل ما فى جعبته من الالفاظ المنتقاة . ويسب معها ذلك الرائد الذى ارسل هؤلاء الفتيات للمطاردة . اذن لربما خفف ذلك عنه . ولكنه مضطر ان يرسم بكل قواه الابتسامة على شفتيه .

– هيا يا مجندة جورفيتش ، صيحى ثلاث مرات !

– ولماذا ؟

– لاختبار الاستعداد الحربى . هيا . . . هل نسيت كيف علمتك ؟

ابتسمت على الفور ، ودبت الحياة فى عينيها .

– كلا ، لم انس .

لم توفق طبعا فى الصياح ، مجرد عبث ، كما فى المسرح . ومع ذلك ادرك الحرس الامامى والمؤخرة ماذا هناك فاسرعوا . وجاءت اسيانينا ركضا والبندقية فى يدها .

– ماذا حدث ؟

فقال القومندان بحدة :

– لو حدث شيء لكان الملائكة يستقبلونكم الآن فى العالم الآخر . انظر كيف برطعت كالعجلة . . مرفوعة الذيل !

غضبت . احمرت كلها كالشروق فى شهر مايو . ولكن ما العمل . . . ينبغى ان يعلمهن .

– هل تعبتم ؟

– ماذا تقول !

الحمراء هى التى ردت . طبعا غضبت لاسيانينا . فقال فيدوت يفجرافيتش مسالما :

– هذا حسن . ما الذى لاحظتموه فى الطريق ؟ بالترتيب : الرقيب الثانى اسيانينا .

فارتبكت ريتا :

– لا شيء على ما يبدو . . . غصن مكسور عند المنعطف .

– شاطرة ، مضبوط . حسنا ، والمجندة كوميلكوفا .

– لم الاحظ شيئا . كل شيء على ما يرام .

وفجاة قالت ليزا بريتشكينا بعجلة :

– الندى منفوض عن الاغصان . على يمين الطريق لا يزال على الاغصان ، اما عن اليسار فمنفوض .

فقال الشاويش برضى :

– هذه هى العيون ! شاطرة يا مجندة بريتشكينا . وبالاضافة الى ذلك كان على الطريق اثران . من حذاء مطاط المانى يلبسه جنود الانزال . واذا حكمنا من اتجاه الاحذية ، فهم يدورون حول المستنقع . فليدوروا ، اما نحن فسنعبره فى خط مستقيم . امامكم خمس عشرة دقيقة للتدخين وقضاء الحاجة . . .

ضحكن ، كانما تفوه بهراء ما . مع انها صيغة امر حربى ، ومسجلة فى اللوائح . وقطب فاسكوف حاجبيه :

– كفى قهقهة ! لا تتفرقوا ! خلاص . . .

وحدد لهن اين يضعن الاكياس ، واين يضعن المعاطف ، والبنادق ، ثم سرح جيشه . واندفعن جميعا ليختفين فى الخمائل كالغزلان .

واخرج الشاويش فاسه وقطع ستة اعواد جافة طويلة ، ثم



اشعل لفافة وجلس جوار الحاجيات . وسرعان ما اجتمعن حوله وهن يتهامسن ويتبادلن النظرات .

وقال القومندان :

– علينا ان نكون الآن اكثر يقظة . سأسير فى المقدمة ، ثم تتبعونى معا ، على ان تسيروا على الاثر تماما ، فمن اليمين واليسار وحل المستنقع . . . يمتصكم قبل ان تصيحوا : ماما ! كل واحدة تأخذ عودا ، وقبل ان تخطوا تجس الارض بالعود . هل هناك اسئلة .

فى هذه المرة صمتن . هزت الحمراء راسها ولكنها امسكت عن الكلام . ونهض الشاويش وفرك عقب اللفافة فى الطحلب .

– من منكم قوية ؟

فسالت ليزا بريتشكينا بتردد :

– ولماذا ؟

– المجندة بريتشكينا ستحمل كيس المترجمة .

فصاحت جورفيتش بصوت رفيع :

– وما الداعى ؟

– لا احد يسالك . . . يا كوميلكوفا !

– نعم .

– خذى الكيس من المجندة تشيتفرتاك .

– هاتى البندقية ايضا يا حبيبتى . . .

– ممنوع الكلام ! نفذى الامر . كل واحدة تحمل سلاحها بنفسها . . .

بعد ان صرخ غضب من نفسه . . . لا ينبغى ان يتصرف هكذا . . . هل يمكن بالزعيق جعلهن واعيات ؟ تستطيع ان تزعق حتى الشلل ولا تحقق شيئا . ولكنهن يكثرن من الكلام والثرثرة . والثرثرة للشخص العسكرى كطعنة السونكى فى الكبد . هذا مضبوط تماما . . .

– اكرر لكى لا يحدث خطأ . سيروا خلفى تماما . القدم فى موضع القدم . وبالعود اختبروا الارض . المسيرة خطرة . نظام السير كالتالى : انا فى المقدمة . تتبعنى جورفيتش ،

بريتشكينا ، كوميلكوفا ، تشيتفرتاك . الرقيب الثانى اسيانينا فى المؤخرة . هل هناك اسئلة ؟

– هل المستنقع عميق ؟

تشيتفرتاك هى التى تسال . . . هذا مفهوم ، فمع قصرها يبدو الدلو بئرا .

– فى بعض الاماكن يصل الى الـ . . . يعنى . . . الى هذا الحد . بالنسبة لكم يصل الى الخصر . حافظوا على البنادق .

وخطا مباشرة فانغرز حتى الركبة ، وطرطش الوحل . خطا وهو يترنح كانما يسير فوق مرتبة هزازة . وسار دون ان يلتفت ولكنه كان يعرف كيف تسير الفصيلة من التنهدات والهمس الخائف الذى كان يتردد خلفه .

كان الهواء فوق المستنقع رطبا ساكنا خانقا ، وحومت سحب البعوض الربيعى العنيد فوق الاجساد الساخنة . وانتشرت فى الجو رائحة العشب العطن الحادة والنباتات المائية المتعفنة والمستنقعات .

كانت الفتيات يرتكزن بكل ثقلهن على الاعواد وهن ينتزعن ارجلهن بصعوبة من الوحل البارد الماص . وكانت جونلاتهن

المبللة تلتصق بافخاذهن بينما تتجرجر مؤخرات البنادق فى الوحل . كانت كل خطوة تتطلب جهودا ، فسار فاسكوف ببطء موائما خطواته مع جالا تشيتفرتاك الصغيرة .

كان يتجه نحو الجزيرة التى كانت تنمو فيها شجرتا صنوبر قصيرتان شوهتهما الرطوبة . ولم يكن القومندان يحول نظره عنهما محاولا ان يقتنص فى الفرجة بين جذعيهما المشوهين شجرة البتولا البعيدة الجافة ، لانه ليس هناك ممر آخر من اليمين واليسار

– يا شاويش !

– يا للشيطان ! . . وغرز القومندان العود بقوة واستدار بصعوبة . بالضبط : لقد تباعدت بينهن المسافات وتوقفن .

– ممنوع الوقوف ! ممنوع الوقوف ! المستنقع سيمتصكم !

– يا شاويش . . الجزمة فلتت من رجلي ! . .

انها تشيتفرتاك تصيح من آخر الطابور . مغروزة كالجذع حتى خصرها . اقتربت منها اسيانينا وشدتها . يجسان المستنقع بالا عواد . . . هل تبحثان عن الحذاء ؟

– وجدتوه ؟

– لا . . .

ادارت كوميلكوفا العود فترنحت . ولحسن الحظ انه لاحظ ذلك في الوقت المناسب . صرخ حتى انتفخت عروق جبينه :

– الى اين ؟ قفي !

– سأساعد . . .

– قفي ! . . لا طريق الى الخلف !

يا الهي . . لقد اربكهن تمامـــا . فمرة : لا تقفن ، ومرة قفن . الخوف ان يصيبهن الرعب ويتملكهن الذعر . فالذعر في المستنقعات هو الموت بعينه .

– بهدوء ، بهدوء ! بقيت مسافة قليلة حتى الجزيرة . هناك سنستريح . وجدتم الحذاء ؟

– كلا . . . – الوحل يسحب الى اسفل يا شاويش !

– لا بد من السير . لن نستطيـــع الوقوف طويلا هنا في الوحل .

– وكيف اترك الحذاء .

– وهل يمكن ان تجديه الآن ؟ الى الامام ! . . الى الامام ! اتبعوني ! – واستدار وتقدم دون ان يلتفت . – القـــدم مكان القدم . لا تتاخروا !

صاح عن عمد حتى ترتفع معنوياتهن . فالامر يرفع معنويات الجنود . هذا يعرفه جيدا . من تجربته .

اخيرا وصلوا . كان قلقا في الامتار الاخيرة بشكل خاص ، لان المستنقع فيها اعمق ، وليس من الممكن انتزاع الاقدام ،



فلا بد من الخوض بالجسم كله في هذا الوحل الملعون . وهنـا مطلوب القوة والمهارة . ولكن الامر انتهى على خير .

وتوقف فاسكوف عند الجزيرة ، حيث يمكن الوقوف ، وجعل جماعته كلها تمر بجواره مساعدا اياها على الوصول الى الارض الصلبة .

– لا تستعجلوا ، بهدوء . سنستريح هنا قليلا .

خرجت الفتيات الى الجزيرة وارتمين على عشب العام الماضي الذابل . كن مبللات ، ملطخات بالوحـــل ، منهكات . واهدت تشيتفرتاك للمستنقع لا فردة الحذاء فقط بل والشريط ايضا . . . خرجت بجوربها فقط . وكانت فيه فتحة تطل منها اصبعها الابهام الزرقاء من البرد .

– حسنا يا مجندات ، هل تعبتم ؟

صمتن . ليزا فقط قالت موافقة :

– تعبنا . . .

– اذن استريحوا الآن . المرحلة التالية اسهل . سنصـــل الى شجرة البتولا الجافة . وخلاص .

فقالت ريتا :

– نريد ان نغتسل .

– في الناحيـــة الاخرى جدول صاف ، وشاطئ رملي . . . فلتستحموا حتى . . . ولكننا سنضطر الى تجفيف الملابس اثناء السير طبعا .

وتنهدت تشيتفرتاك وسألت بتردد :

– وماذا افعل بدون الحذاء .

فابتسم فيدوت يفجرافيتش قائلا :

– سنصنع لك مداسا . ولكن ليس هنا . . . بعد المستنقع . هل تصبرين ؟

– سأصبر .

وقالت كوميلكوفا بغضب :

– يا لك من حمقاء يا جالكا ! كان ينبغي ان تقوسي اصابعك الى اعلى وانت تنتزعين قدميك .

– قوستها ، ومع ذلك انخلع .

– انا بردانة يا بنات .

– انا مبتلة حتى آخر قطعة . . .

– اتظنين انى جافة ؟ لقد تعثرت فوقعت وقعة ! . .

يضحكن . اذن لا بأس ، يستعدن قواهن . ومع انهن من جنس النساء لكنهن شابات ، اذن فلديهن قوة ، مهما كانت فهى قوة . الخوف ان يمرضن . . . فالماء بارد كالثلج . . .

وجذب فيدوت يفجرافيتش نفسا آخر ، ثم القى بالعقب فى المستنقع ونهض قائلا بحيوية :

– هيا ، اجمعوا الاعواد يا مجندات . اتبعونى حسب النظام السابق . سنغتسل ونتدفأ هناك ، على الشاطئ .

وخطى من فوق جذر الشجرة فى الوحل البنى مباشرة .

كانت هذه المرحلة الاخيرة ايضا اعوذ بالله ! الوحل مثل بالوظة الشعير ، فلا هو يتحمل وطء الاقدام ولا هو يساعد على الخوض فيه . فالى ان تتقدم الى الامام تعرق سبع مرات .

– كيف الحال يا رفاق ؟

صاح لكى يرفع معنوياتهن ، ودون ان يلتفت .

وسألت جورفيتش وهى تلتقط انفاسها :

– هل هنا دود العلق ؟

كانت تسير خلفه فى الطريق الذى يشقه فاحست ببعض الراحة .

– لا شىء هنا . مكان لا حياة فيه ، مهلك .

وتصاعدت الى اليسار فقاعة وانفجرت ، فتنهد المستنقع بصوت داو . وصرخت احداهن خلفه بذعر . فقال موضحا :

– انه غاز المستنقعات يتصاعد ، لا تخافوا . لقد حركناه . . . – ثم فكر قليلا واضاف – الشيوخ يقولون ان لهذه الاماكن سيدا يسكنها . . . غول يعنى . . . ولكن هذه طبعا خرافات . . .

حرسه صامت . يتنهد ويتاوه ويتحشرج . ولكنهن يسرن ، يسرن بعناد ، وسخط .

الآن اسهل . البالوظة خفت والقاع اصلب ، بل تظهر هنا وهناك بعض الاماكن الجافة . وتعمد الشاويش الا يسرع فتقاربت



المسافات فى الفصيلة . . . سرن خلف بعضهن مباشرة . وصلوا الى شجرة البتولا معا . فى الامام بدات الغابة وظهرت النتوءات والطحالب فبدا ذلك شيئا تافها بالنسبة لما مروا به ، خاصة وان التربة اخذت ترتفع حتى تحولت بشكل غير ملحوظ فى النهاية الى غابة جافة . وهنا انطلقت اصواتهن معا فى فرحة فالقين بالاعواد . لكن فيدوت يفجرافيتش امرهن بالتقاط الاعواد وتركها عند شجرة صنوبر مميزة قائلا :

– ربما يحتاج اليها احد .

ولم يدعهن يسترحن دقيقة واحدة . لم يشفق حتى على جالا تشيتفرتاك الحافية .

– بقى القليل يا مجندات ، شدوا حيلكم ! سنستريح عند الجدول .

وصعدوا الى مرتفع فبدا الجدول من بين اشجار الصنوبر . كان نقيا كدمعة العين ، بشواطئ رملية كالذهب .

وصاحت جينكا الحمراء :

– هيه ! بلاج يا بنات !

وتصايحت الفتيات بكلمات فرحة ، وانطلقن نحو النهر فوق المنحدر وهن ينزعن المعاطف والاكياس .

فصاح القومندان :

– كما كنت ! . . انتباه !

تسمرن مرة واحدة . حدقن فيه بدهشة ، بل وبزعل فاكمل بغضب :

– كيف تغرزون البنادق فى الرمل . . . يالمحاربات ! اسندوا البنادق الى شجرة . . . مفهوم ؟ الاكياس والمعاطف فى مكان واحد . امامكم اربعون دقيقة للاستحمام والهندام . سأجلس خلف الخميلة على مدى الصوت . الرقيب الثانى اسيانينا . . . انت مسئولة امامى عن النظام .

– تمام يا شاويش !

– طيب ، خلاص . بعد اربعين دقيقة كونوا مستعدين ، لا بسين البدل والجزم ونظيفات .

وهبط على المنحدر قليلا . واختار مكانا يتوفر فيه الرمل والماء فيه عميق ، والخمائل تحيط به . ونزع البدلة العسكرية والحذاء والملابس الداخلية . وتناهت اليه كلمات مبهمة صادرة عن الفتيات ، كان بعضها واضحا ، كما سمع ضحكاتهن ، وربما لهذا السبب كان مصغيا طوال الوقت .

كان اول ما فعله ان غسل السروال والاشرطة والملابس الداخلية وعصرها بكل قواه ، ونشرها على الاغصان لتجف . ثم غطى جسده برغوة الصابون وتنهد قليلا ، ثم خطا على الشاطئ وهو يستجمع شجاعته ، وقفز منه الى جوف الماء . ثم طفا وهو لا يكاد يتنفس . كان الماء باردا يعصر القلب . اراد ان يصرخ بكل قوة ، لكنه خشي ان يخيف «حرسه» ، فصاح بهمس تقريبا ودون استمتاع ، وازال الرغوة وخرج الى الشاطئ . وبعد ان دلك جسده بالمنشفة الخشنة حتى احمر والتقط انفاسه ، عندها فقط بدا يصيخ السمع من جديد .

كن يثرثرن هناك كما هي الحال عندما تجتمع النساء : في وقت واحد ، وكل واحدة عن امورها هي . ضحكاتهن فقط هي التي كانت منسجمة . وصاحت تشيتفرتاك بفرح :

– آه يا جينكا . . . لا يا جينكا ! وفجأة صرخت كوميلكوفا :

– الى الامام فقط ! . .

وسمع الشاويش كيف طرطشت المياه خلف الخمائل .

فقال لنفسه مكنا لهن الاحترام :

– انظر ، يستحمون ! . .

وغطت صرخة اعجاب على جميع الاصوات فجأة . . من حسن الحظ ان الالمان كانوا بعيدين . ولم يميز في هذه الصرخة شيئا في البداية ، ثم صاحت اسيانينا بعد ذلك بحدة :

– يفجينيا . . . الى الشاطئ ! حالا !

وابتسم فيدوت يفجرافيتش ولف لفافة سميكة ، وطرق الزناد على الحجر واشعل اللفافة من الخيط المحترق ، واخذ يدخن ببطء وباستمتاع معرضا ظهره العاري لشمس الربيع الدافئة .

طبعا لم تجف الملابس خلال الاربعين دقيقة ، بيد ان الانتظار كان مستحيلا ، وانكمش فاسكوف وهو يشد على جسده الكلسون



والسروال العسكري المبللين . وكان معه اشرطة احتياطية لحسن الحظ ، فدس في الحذاء قدمين جافتين . ثم ارتدى السترة وشد الحزام ، وجمع الاشياء ثم صاح بصوت عال :

– مستعدون يا مجندات ؟

– انتظر قليلا . . .

هذا هو ما قدره ! ابتسم فيدوت يفجرافيتش بسخرية وهز راسه وما كاد يفتح فمه متقدما نحوهن حتى صاحت اسيانينا مرة اخرى :

– تعال ! الآن ممكن . . .

تقول له «ممكن» وهو الاكبر رتبة ! انها لسخرية باللوائح في حقيقة الامر . فوضى !

ولكنه كان خاطرا عابرا ، لان مزاج القومندان بعد الاستحمام كان كمزاجه يوم العيد . خاصة وان «حرسه» كان في انتظاره نظيفا مهندما وباسما .

– كله تمام يا مجندات ؟

– تمام يا شاويش . . . حتى ان كوميلكوفا استحمت .

– شاطرة يا كوميلكوفا . الم تبردي ؟

–وحتى لو بردت . . . فليس هناك من يدفئني . . .

– لاذعة ! هيا نتناول لقمة ثم نتحرك قبل ان يغلب التعب علينا .

واكلوا خبزا وسمكا مملحا ، فقد ابقى الشاويش على الطعام الدسم الى وقت آخر . ثم صنعوا حذاء لهذه الخائبة تشيتفرتاك : لفوا قدمها بالاشرطة الاحتياطية ، ومن فوقها جوربين من الصوف (وقد صنعتهما ربة الدار واهدتهما له) . وصنع فيدوت يفجرافيتش لها من لحاء البتولا الطازج مسندا للكعب وربطه بشريط .

– لا باس به ؟

– بل ممتاز . شكرا يا شاويش .

– حسنا . هيا يا مجندات . امامنا ساعة ونصف من حك الاقدام . وبعد ذلك علينا ان نتفقد المكان ونستعد ونحدد اين وكيف نستقبل الضيوف . . .

وحث فتياته على السير بسرعة لكي تجف جونلاتهن واشياؤهن

الاخرى اثناء السير . ولكنهن رغم ذلك صمدن ، فقط ، احمرت وجوههن .

هيا ، اسرعوا يا محاربات ! اتبعونى بالخطوة السريعة !

وركض حتى تقطعت انفاسه . ثم سار بالخطوة المعتادة ليعطيهن فرصة للراحة ، ثم من جديد :

– اتبعونى . . . بالخطوة السريعة !

كانت الشمس تميل نحو المغيب عندما وصلوا الى بحيرة قوب . وكانت مياهها تداعب صخور الشاطئ بهدوء ، والصنوبر يهفهف على الشواطئ هفهفة الغروب .

وحدق الشاويش طويلا فى الماء فلم ير اية قوارب . وشمشم الهواء الهامس كثيرا فلم يحس برائحة دخان . قبل الحرب لم تكن هذه البقعة عامرة بالناس ، اما الآن فقد اقفرت تماما ، كما لو كان الجميع – قاطعو الاخشاب ، والصيادون ، وصيادو السمك ، وجامعو الصمغ – قد رحلوا الى الجبهة .

وقالت يفجينيا الصاخبة بهمس :

– يا للهدوء . . . كما فى الحلم .

وقال فيدوت يفجرافيتش موضحا :

– من عند اللسان الايسر تبدأ السلسلة الزرقاء . ومن الجانب الآخر تحيط بها البحيرة الثانية . اسمها بحيرة ليجونتوفو . كان يعيش هنا راهب ما ، يدعى ليجونت . كان يبحث عن الصمت .

فتنهدت جورفيتش قائلة :

– الصمت هنا متوفر بما فيه الكفاية .

– امام الالمان طريق واحد : عبر هذه السلسلة ، بين البحيرتين . وماذا فى السلسلة ؟ صخور كرؤوس الخرفان وكتل بحجم المنزل . علينا ان نختار مواقعنا هناك بالذات : الموقع الرئيسى والموقع الاحتياطى ، كما تنص اللوائح . ووبعد ان نختارها سنأكل ونرتاح ، ونجلس فى الانتظار . اليس كذلك يا رفيقات ؟

وصمتت الرفيقات المجندات . غرقن فى التفكير . . .



## ٥

كان فاسكوف منذ الصغر يشعر بأنه اكبر من سنه . ولو لم يكدح فى اعوامه الاربعة عشر كما يكدح رب اسرة كبير لتسولت اسرته . خاصة وان الجوع كان منتشرا انذاك وكانت الصعوبات كثيرة . واصبح هو الرجل الوحيد فى الاسرة . . . فهو الطاعم وهو الكاسى وهو الساقى . كان يعمل صيفا كفلاح ، وشتاء يصيد الحيوانات ولم يعلم بايام الراحة المفروضة الا فى العشرين من عمره . ثم بعد ذلك دخل الجيش . . . وهذا ايضا ليس روضة اطفال . . . فى الجيش يحترمون الوقار . وكان هو يحترم الجيش . وهكذا فى هذه المرحلة ايضا لم يعد الى الصبا بل اصبح شاويشا . ومعروف ما هو الشاويش . . . انه بالنسبة للجنود دائما الاكبر . هكذا ينبغى ان يكون .

ولذلك نسى فيدوت يفجرافيتش سنه . كان يعرف شيئا واحدا : انه اكبر من الجنود والملازمين ، وعلى مستوى واحد مع جميع الرواد ، واصغر دائما من اى عقيد . وليست القضية هنا قضية مرؤوسية ، بل المهم النظرة الى الامور .

ولذلك كان ينظر الى الفتيات اللائى قدر له ان يكون قائدهن ، وكأنه يطل من جيل آخر . وكأنما كان ممن خاضوا الحرب الاهلية وكان يشرب الشاى مع فاسيلى ايفانوفيتش تشاباييف * نفسه قرب مدينة لبيشينك . ولم يكن هذا الشعور استنتاجا ذهنيا او عهدا قطعه على نفسه ، بل كان نابعا من جوهر شخصيته .

ولكن فكرة انه اكبر من سنه لم تجل بخاطره ابدا . فقط فى هذه الليلة ، الساكنة المضيئة تسرب الى قلبه بعض الشك .

بيد ان تلك الليلة كانت ما تزال بعيدة ، وقبلها كان عليهم ان يختاروا المواقع . قفزت مجنداته فوق الاحجار كالعنزات ، وفجأة اخذ هو ايضا يقفز معهن ، وكان يفعل ذلك ببراعة حتى انه دهش من نفسه . ولما دهش قطب حاجبيه ، واخذ على الفور يسير بوقار ويتسلق الصخور على ثلاث مراحل .

وعلى العموم فليس هذا هو المهم . المهم انه وجد موقعا

* كان تشاباييف بطلا مشهورا من ابطال الحرب الاهلية وقائدا للفرقة الخامسة والعشرين فى الجيش الاحمر . المترجم .

ممتازا . عميقا ، بمشارف مستورة ومجال رؤية من الغابة الى البحيرة . وامتد هذا الموقع كرؤوس خرفان صماء بحذاء شاطئ البحيرة ، تاركا شريطا ضيقا للمرور عند الشاطئ . وفي حالة الضرورة كان يتحتم على الالمان ان يقضوا ثلاث ساعات لكي يلتفوا حول السلسلة عبر هذا الشريط ، بينما كان هو يستطيع ان ينسحب مباشرة عبر الصخور ليشغل الموقع الاحتياطي قبل وصول العدو بوقت طويل . وقد اختار الموقع الاحتياطي هكذا ، من قبيل التحوط ، لانه كان بوسعه بالتأكيد ان يتغلب على هذين الالمانيين هنا ، عند الموقع الاساسي .

وبعد ان اختار فيدوت يفجرافيتش الموقع قام ، كما ينبغي ، بحساب الزمن . فاتضح من هذا الحساب انه يقي على وصول الالمان حوالي اربع ساعات ، ولذلك سمح لجماعته باعداد وجبة ساخنة بواقع قدر لكل شخصين . وتطوعت ليزا بريتشكينا للطهي فخصص لها مساعدتين واعطى تعليماته بان تكون النار بدون دخان .

– لو لاحظت دخانا فساقلب الطعام في النار فورا . مفهوم ؟

فقالت ليزا بصوت متهدج :

– مفهوم .

– ابدا ، غير مفهوم . سيكون مفهوما عندما تطلبين مني فاسا وترسلين مساعدتيك لاحضار حطب جاف . واطلبي منهما ان تقطعا الحطب الخالي من الطحلب ، الحطب الذي يخشخش . وعندئذ لن يتصاعد منه الدخان ، بل نار صافية .

واراد ان يضرب لهن مثالا فقطع بعض الحطب الجاف بنفسه واشعل النار . وبعد ذلك ، عندما كان مع اسيانينا يتفقد الموقع ، اخذ يتطلع الى جهة النار فلم يلاحظ دخانا . كان الهواء فقط يتراقص فوق الاحجار . ولكن هذا شيء لن يلحظه الا من يعرف ان هناك نارا مشتعلة ، او من له عين خبيرة مدربة ، ومثل هذه العين طبعا لم تكن لدى الالمان .

وبينما كان ذلك الثلاثي يطهو الطعام اخذ فاسكوف معه الرقيب الثاني اسيانينا والمجندة كوميلكوفا وتفقد السلسلة كلها ، فحددوا الاماكن وقطاعات الضرب والعلامات المميزة .



وقاس فاسكوف بنفسه المسافة بينهم وبين تلك العلامات بعدة خطوات واثبتها في لوحة الرماية كما تقضي بذلك اللوائح .

وعند ذلك دعين للغداء ، فجلسن ازواجا بنفس ترتيب المسيرة وشاركت المجندة جورفيتش القومندان في قدر الطعام . واخذت تاكل بتواضع شديد طبعا ، وتدق بالملعقة كثيرا لتبعد قطع اللحم عنها وتتركها له . فقال الشاويش بنبرة عدم رضا :

– عبثا تدقين بالملعقة ايتها الرفيقة المترجمة . انا لست حبيبك حتى تتركي لي قطع اللحم . هيا كلي كما ينبغي لمحارب ان ياكل .

فقالت مبتسمة :

– انني آكل .

– واضح ! نحيلة مثل عصفور الشتاء .

– تركيب جسمي هكذا .

– تركيب جسمك ... انظري الى بريتشكينا ... تركيب جسمها مثلنا جميعا ، ولكن انظري الى جسدها . . . فيه ما يسر العين . . .

وشربوا الشاي بعد الغداء ، اذ كان فاسكوف قد جمع اثناء سيرهم بعض اوراق العليق فصنعوا منها الشاي . واستراحوا نصف ساعة ، ثم امرهم الشاويش ان يصطفوا .

– اسمع الامر الحربي ! – بدأ بصوت مهيب رغم انه كان في قرارة نفسه يشك في صحة تصرفه بخصوص هذا الامر الحربي – العدو ، بقوة حوالي جنديين مدججين بالسلاح يتقدم نحو منطقة بحيرة فوب بهدف التسلل سرا الى سكة حديد كيروفسكايا وقناة بيلومورسكو–بالتيسكي المسماة باسم الرفيق ستالين . وقد كلفت فصيلتنا وقوتها ستة افراد بالمرابطة للدفاع عند السلسلة الزرقاء واسر العدو هناك . جارنا الايسر بحيرة فوب ، وجارنا الايمن بحيرة ليجونتوفو . . . – وصمت الشاويش قليلا وتنحنح ، وفكر مضطربا بانه كان ينبغي ، في الغالب ، ان يسجل الامر اولا على الورق ، ولكنه مضى يقول – لقد قررت : مقابلة العدو عند الموقع الرئيسي ودون ان تفتح النار نطلب منه الاستسلام . وفي حالة ابدائه مقاومة نقتل احدهما ، ونأخذ

الثانى حيا رغم كل شىء . تترك كل الممتلكات فى الموقع الاحتياطى تحت حراسة المجندة تشيتفرتاك . ممنوع بدء الاعمال الحربية الا بامرى . اعين الرقيب الثانى اسيانينا نائبا لى ، فاذا اصيبت تحل محلها المجندة جورفيتش . هناك اسئلة ؟

فسالت تشيتفرتاك بزعل :

– ولماذا افردتنى فى الاحتياط ؟

– هذا سؤال ثانوى يا مجندة . نفذى ما امرت به .

فقالت اسيانينا :

– انت احتياطى المجموعة يا جالكا .

وقالت كوميلكوفا بنشاط :

– لا اسئلة ، كل شىء واضح .

– اذن ارجو التحرك الى الموقع .

ووزع المجندات على الاماكن التى اختارها مسبقا مع اسيانينا ، وبين لكل منهن العلامات المميزة ونبههن مرة اخرى ان ينبطحن كالفئران .

– اياكم ان تتحركوا . انا الذى ساخاطب العدو اولا .

فقالت جورفيتش بخبث :

– بالالمانية ؟

فرد الشاويش بحدة :

– بالروسية ! واذا لم يفهم فترجمى انت . هل ما اقوله واضح ؟

صمتن جميعا .

– اذا اخذتم تطلون برؤوسكم هكذا اثناء المعركة فلتعلموا انه ليس قربنا مستشفى كتيبة ، وماما ايضا ليست هنا .

لم يكن هناك داع لذكر ماما . . . لم يكن هناك داع على الاطلاق . وغضب من نفسه بشدة ، فما سيحدث هنا شىء جدى ، وليس فى ميدان الرماية !

– محاربة الالمان حسنة فقط عن بعد . فالى ان تعمروا بنادقكم العتيقة وتضربوا يكونون قد جعلوا منكم غرابيل ! لذلك آمركم بكل حزم بالانبطاح حتى تسمعوا «اضرب !» منى شخصيا .



والا فلن اعمل حسابا لكونكم نساء . . . – وهنا سكت ولم يكمل ، ثم اشاح بيده وقال – خلاص ، انتهت التعليمات .

وحدد قطاعات المراقبة ووزعهن ازواجا حتى يراقبن جيدا . وصعد هو الى مكان اعلى ، وتفحص بالمنظار طرف الغابة حتى دمعت عيناه .

كانت الشمس تتشبث بقمم الاشجار وهى تنحدر نحو المغيب ، ولكن الصخرة التى كان فاسكوف منبطحا عليها كانت لا تزال تحتفظ بالدفء المدخر طوال النهار . ونحى الشاويش المنظار واغمض عينيه قليلا ليريح بصره . وعلى الفور تارجحت هذه الصخرة الدافئة وسبحت فى الهدوء والسكينة نحو وجهة ما ، ولم يفطن فاسكوف الى انه قد نعس . كان على ما يبدو يشعر بالنسيم الخفيف حوله ويسمع جميع الاصوات الخافتة ، وفى الوقت نفسه خيل اليه انه ينام على الفرن وقد نسى ان يضع الفراش تحته ومن المفروض ان يخبر امه بذلك . ورأى امه ايضا ، تلك المراة الصغيرة النشيطة ، التى تنام خطفا منذ عدة اعوام ، وكأنها تسرق تلك اللحظات من حياتها الفلاحية الشاقة . رأى يديها النحيلتين لاقصى حد واصابعها التى لم تعد تنثنى منذ امد بعيد من الرطوبة وكثرة العمل . رأى وجهها المجعد كحبة بطاطس مشوية ، ودموعها تنساب على خديها الذابلين ، فادرك انها لا زالت تبكى على ايجور المتوفى ، ولا زالت تبكت نفسها وتتحسر . واراد ان يقول لها كلمة رقيقة ، ولكن شخصا لمس قدمه ، فقرر لسبب ما انه ابوه فاستولى عليه الرعب . وفتح عينيه فرأى اسيانينا تصعد الصخرة وتمسك بقدميه .

– الالمان ؟ . . .

فاستدارت بذعر قائلة :

– اين ؟

– يالشيطان . . . خيل الى . . .

ونظرت اليه ريتا طويلا وابتسمت :

– نم قليلا يا فيدوت يفجرافيتش ، وساحضر لك المعطف .

– ماذا تقولين يا اسيانينا ! انها مجرد غفوة من التعب . ينبغى ان ادخن .

وهبط . كانت كوميلكوفا تحت الصخرة تمشط شعرهـــا . نشرته حتى غطى ظهرها ، ولم تستطع ان تمشطه حتى النهاية لطوله ، فاخذت ترفع اطرافه . وياله من شعر كثيف ناعم يلمع كالنحاس الاحمر . ويداها تنسابان برفق وتؤدة وهدوء .

وسال الشاويش :

– مصبوغ ، هه ؟

وعلى الفور خاف ان ترد ردا لاذعا فينتهى جو التبسط هذا .

– لا ، طبيعى . . . اهو منكوش ؟

– لا ، بسيطة .

– لا تظن اننى مهملة . زميلتى ليزا بريتشكينـــا تراقب هناك . . . عيناها حادتان .

– لا بأس ، لا بأس . . . اقضى حاجتك . . .

يا للشيطان ! افلتت منه هذه الكلمة ثانية ؟ افلتت لانهـــا من اللوائح . محفورة حفرا فى ذهنه . آه يا فاسكوف ، يالك من دب ! يالك من دب برى !

وقطب الشاويش حاجبيه ، واشعـل لفافة وغطـــى نفســـه بالدخان .

– هل انت متزوج يا شاويش .

ونظر : من وسط الوهج الاحمر اطلت عينـــان خضراوان . عينان نظرتهما هائلة القوة ، كمدفع عيار ١٥٢ ملىّ .

– متزوج يا مجندة كوميلكوفا .

طبعا كذب عليها . ولكن هذا افضل مع واحدة مثلهـــا . . . ففى ذلك تحديد للمواقع . ومن يشغلها .

– واين زوجتك ؟

– فى البيت طبعا .

– وعندك اولاد ؟

– اولاد ؟ . . . – وتنهد فيدوت يفجرافيتش – كان عندى ولد . ومات . قبل الحرب مباشرة .

– مات ؟

القت شعرها الى الوراء ونظرت فنفذت نظرتها الى اعمـــاق



روحه . ولم تقل شيئا . لم تواسه ، او تمزح . لم تقل كلمات فارغة . ولذلك زفر فاسكوف . . . لم يتمالك نفسه ، وقال :

– نعم ، لم تحافظ امى عليه . . .

واحس بالاسف اذ قال ذلك ، حتى انه قفز من مجلسه فورا وشد سترته كانه يستعد لاستعراض .

– كيف الحال عندك يا اسيانينا ؟

– لا احد يا شاويش .

– استمرى فى المراقبة !

ومضى يتنقل من مجندة الى مجندة .

كانت الشمس قد غربت منذ فترة طويلة ، ولكن الجو كان مضيئا وكانه قبيل الفجر ، فجلست المجندة جورفيتش تقرا كتابا خلف صخرتها . واخذت تدندن وكانها تقرا صلوات ، فسمع فيدوت يفجرافيتش قبل ان يصلها :

من ولدوا فى عصور الظلام
قد نسوا دربهم .
لكننا ابناء سنين الرعب
يا روسيا
لا نقوى على النسيان
يا سنى الدمار !
انذير الجنون تخبئين
ام بشرى الامل ؟
على الوجوه ظلال بريق دموية
من ايام الحرب . . . وايام الحرية . . .

واقترب منها فسالها :

– لمن تقرئين ؟

ارتبكت المترجمة (لقد امرها ان تراقب ، نعم ان تراقب !) ونحت الكتاب وارادت ان تنهض ولكنه اشاح بيده :

– لمن تقرئين ؟

– هكذا . . . لنفسى .

– ولماذا بصوت عال ؟

– لانها اشعار .

– آه . . . – ولم يفهم فاسكوف ، وتناول الكتاب . كتاب قليل الصفحات مثل دليل القنابل اليدوية . قلب صفحاته وقال – تضعفين بصرك .

– الضياء كاف يا شاويش .

– اننى اتكلم بشكل عام . . . ثم اسمعى ، لا تجلسى على الصخر ، سيبرد قريبا ويبدأ فى سحب الدفء منـــك دون ان تشعرى . افرشى المعطف تحتك .

– حسنا يا شاويش . اشكرك .

– ومع ذلك لا تقرئى بصوت عال . الهواء رطب فى المساء ، كثيف ، والمغيب هنا هادئ ولذلك فالصوت يسمع على بعد خمسة كيلومترات . عليك ان تتطلعى يا مجندة جورفيتش . تطلعى .

رابطت بريتشكينا بقرب البحيرة . وعندمـــا رآها فيدوت يفجرافيتش من بعيد ابتسم مسرورا : بنت ناصحة ! قطعت اغصان شوح وفرشت مضجعا بين الصخور وغطتها بالمعطف . عندهـــا خبرة . ودفعه ذلك الى الاهتمام فسالها :

– من اين انت يا بريتشكينا .

– من مقاطعة بريانسك يا شاويش .

– اشتغلت فى مزرعة تعاونية ؟

– اشتغلت . كنت اساعد والدى . كان حارس غابة ، وكنا نعيش فى الغابة .

– ولذلك تقلدين الطيور جيدا .

ضحكت . يحببن الضحك ، لم ينسوه بعد .

– الم تلاحظى شيئا ؟

– كل شىء هادئ حتى الآن .

– تنبهى ولاحظى كل ما هو حولك يا بريتشكينا . هل تهتز الغصون ، هل تجفل الطيور ، فانت تربيت فى الغابة وتفهمين هذه الامور .

– افهم .

– هذا حسن . . .

وتلكا الشاويش . لقد قال كل ما عنده تقريبا ، ويبدو انه اعطى التعليمات ، وينبغى عليه اذن ان ينصرف ، ولكن قدميه



لا تريدان ان تتحركا ، فهذه البنت قريبة الى نفسه جدا ، اذ نشات فى الغابة ، ومضجعها مريح ، والدفء يشع منها ، مثل ذلك الفرن الروسى الحبيب الذى رآه فى المنام اليوم .

وفجاة قال القومندان بصوت رسمى :

– ليزا ، ليزا ، ليزافيتا ، ليه ما بتبعتيش السلام يـــا عفريتة ، ليه ما بتغنيش لحبيبـــــك ، واللا احنـــا يعنى مش عاجبينك – ثم اضاف بسرعة موضحا – هذه الجملـــة يرددونها فى نواحينا .

– اما عندنا . . .

– فيما بعد سنغنى يا ليزافيتا . بعد ان ننفذ الامر الحربى نغنى .

فابتسمت وسالت :

– وعد شرف ؟

– خلاص ، قلت لك .

وفجاة غمز لها بعينه بتهور ، حتى انه خجل باسرع منهـــا فوضع العمرة على راسه وانصرف . وصاحت بريتشكينا فى اثره :

– طيب يا شاويش . . لا تنس انك وعدت !

ولم يرد عليها ، ولكنه ظل يبتسم طوال الطريـــق الى ان عبر السلسة الى الموقع الاحتياطى ، حيث اختبأت المجنـــــدة تشيتفرتاك .

كانت المجندة تشيتفرتاك جالسة تحت الصخرة فوق الاكياس وقد تدثرت بالمعطف ودست يديها فى كميها . وغطت الياقـــة المرفوعة راسها وعمرتها ، واطل انفها الاحمر بيأس من خلف الياقة العسكرية .

– مالك منكمشة هكذا يا مجندة ؟

– بردانة . . .

مد يده اليها فقفزت مبتعدة . . . تراها ظنت ، هذه المغفلة ، انه يريد ان يمسكها من . . .

– اثبتى اذن . . . ارينى جبينك . هيا .

اخرجت رقبتها فضغط الشاويش على جبينها . كان مشتعلا . يالشيطان !

– عندك حمى يا مجندة . اتشعرين ؟

صامتة . عيناها حزينتان كعينى العجلة . تؤنبانه بنظرتهما . وفكر : هذا هو المستنقع يا شاويش فاسكوف . هذا هو الحذاء الذى فقدته المجندة ، هذا هو استعجالك وريح مايو الباردة . تفضل ، اليك جنديا عاجزا عن القتال . . . عبء على المجموعة كلها وعلى ضميرك انت شخصيا .

واخرج فيدوت يفجرافيتش كيسه وفك رباطه وحشر راسه فيه . فى زاوية امينة كان يحتفظ باحتياطيه المحرم : زمزمية بها كحول . . . سبعمائة وخمسون جراما ، مبرشمة . وصب قليلا فى الكوب وقال :

– ستشربينه هكذا ام اخففه لك ؟

– وما هذا ؟

– مزيج . حسنا ، سبيرتو ، ما رايك .

وشوحت بذراعيها وابتعدت :

– لا ، لا . . . ماذا تفعل . . .

– آمرك بالشرب ! . . . – وفكر الشاويش قليلا ثم خففه بقليل من الماء – اشربى . ومن بعده الماء مباشرة .

– لا ، ماذا تفعل . . .

– اشربى بدون كلام !

– حقا ماذا تفعل ! ان ماما طبيبة و . . .

– ماما ليست هنا . هنا حرب ، هنا المان ، هنا انا ، الشاويش فاسكوف . ليست ماما هنا . ماما ستكون لمن يعيش بعد الحرب . كلامى واضح ؟

شربت وهى تغص وتبكى . وسعلت . وضربها فيدوت يفجرافيتش على ظهرها براحته برفق ، فكفت عن السعال ، ومسحت دموعها وابتسمت :

– دخت . . . راسى طار .

– غدا تلحقين به .

وقطع لها بعض اغصان الشوح ، وفرشها وغطاها بمعطفه .

– استريحى .

– وكيف تبقى بدون معطف ؟



– لا تخافى علىّ . انا سليم . المهم تشفين غدا . ارجوك بشدة .

لف الصمت كل شىء . . . الغابات والبحيرات ، والهواء نفسه . كل شىء سكن وحبس انفاسه . وجاوز الزمن منتصف الليل وبدا اليوم التالى ، بينما لم يظهر اى المانى . وكانت ريتا تتطلع الى فاسكوف بين الحين والحين . وعندما اصبحا على انفراد سألته :

– انكون جالسين هنا عبثا ؟

فتنهد واجاب :

– ربما . ولكنى لا اعتقد . طبعا اذا لم تكونى اعتبرت جذوع الاشجار المانيا . .

وكان قد الغى امر السهر وارسل المجندات الى الموقع الاحتياطى وامرهن ان يفرشن اغصان الشوح وينمن حتى يوقظهن . اما هو فبقى هنا ، فى الموقع الاساسى ، وبقيت معه اسيانينا .

سبب عدم ظهور الالمان حيرة شديدة لفاسكوف . كان من الجائز الا يظهروا فى هذه المنطقة ابدا ، ومن الجائز ايضا ان يتجهوا الى السكة الحديد من مكان آخر ، او ربما كانت لديهم مهمة اخرى غير التى ظنها هو . ومن الجائز انهم خربوا كثيرا . . . ربما اطلقوا النار على احد القواد ، او نسفوا شيئا هاما . فلتحاول اذن ان تبرر موقفك امام المحكمة العسكرية وتوضح اى شيطان ساقك الى هذا المكان بدلا من ان تمشط الغابة وتصطاد الالمان . هل اشفقت على المجندات ؟ خفت ان تلقى بهن فى معركة مكشوفة ؟ ليس هذا تبريرا اذا لم تكن قد نفذت الامر . كلا ، ليس تبريرا .

– هلا نمت قليلا يا شاويش . ساوقظك فى الفجر . . .

عن اى نوم تتحدث ، ياللشيطان ! انه لا يحس حتى بالبرد رغم انه فى السترة فقط . . .

– اصبرى علىّ بالنوم يا اسيانينا . ستكون عندى فرصة للنوم الى الابد اذا كان الالمان قد افلتوا .

– اليس من الجائز انهم نائمون يا فيدوت يفجرافيتش ؟

– نائمون ؟

– نعم . اليسوا بشرا ؟ الم تقل انت نفسك ان السلسلة الزرقاء هى الممر الوحيد المناسب الى السكة الحديد . وعليهم حتى يبلغوها ان يقطعوا . . .

– مهلا يا اسيانينا ، مهلا ! خمسون كيلومترا بالضبط ، بل اكثر . وهم يسيرون فى ارض مجهولة بالنسبة لهم . ويخافون من كل غصن . . . هه ؟ اليس كذلك ؟

– مضبوط يا شاويش .

– واذن فمن الجائز انهم قرروا ان يرتاحوا فى مكان خفى . وسينامون طبعا حتى شروق الشمس . ومع الشمس . . . هه ؟

ابتسمت ريتا . وعادت تنظر اليه طويلا ، كما تنظر النساء الى الاطفال .

– اذن استرح حتى الشمس . ساوقظك .

– النوم لا يراودنى يا اسيانينا . . . يا مرجريتا . . . ما اسم ابيك ؟ *

– خاطبنى بـ«ريتا» فقط يا فيدوت يفجرافيتش .

– هيا ندخن يا ريتا .

– انا لا ادخن .

– نعم ، انا لم انتبه الى مسالة انهم ايضا بشر . لقد نبهتنى الى ذلك . صحيح يجب ان يستريحوا . وانت ايضا يا ريتا اذهبى لتستريحى .

– لا اشعر برغبة فى النوم .

– حسنا ، استلقى الآن . مددى ساقيك . لا بد انك تعبت من المشوار ؟

فابتسمت وقالت :

– اننى معتادة على ذلك يا فيدوت يفجرافيتش .

ولكن الشاويش اقنعها ، فاضطجعت هنا ، على خط النار المقبل ، على اغصان الشوح التى جهزتها ليزا بريتشكينا لنفسها ،

* من التقاليد الروسية مخاطبة الشخص باسمه واسم ابيه احتراما له . المترجم .



وتغطت بالمعطف ، وظنت انها ستتنعس حتى الفجر فغابت فى نوم عميق ، بلا احلام ، كانها غاصت فى هوة . واستيقظت عندما شدها الشاويش من المعطف .

– ماذا ؟

– هس ! اتسمعين ؟

ازاحت ريتا المعطف وشدت جونلتها الى اسفل وقفزت واقفة . كانت الشمس قد انفصلت عن الافق فتوردت الصخور . وتطلعت . كانت الطيور تتطاير صائحة فوق الغابة عن بعد .

– الطيور تصيح . . .

– هذه طيور العقعق ! . . . – وضحك فيدوت يفجرافيتش بصوت خافت – العقعق يجفل يا ريتا . . . اذن فهناك من يزعجه . انهم ضيوفنا حتما . اسرعى يا اسيانينا فاوقظى المجندات . . . جرى ! واياك ان يصدر عنك صوت !

وجرت ريتا .

وانبطح الشاويش فى مكانه الذى كان اكثر ارتفاعا وفى مقدمة الجميع . واختبر المسدس ، ثم القم البندقية رصاصة ، وطاف بالمنظار على طرف الغابة المضاء بالشمس المنخفضة .

كانت طيور العقعق تحوم حول الخمائل وتصيح بصوت عال . وجاءت المجندات ، وتفرقن فى اماكنهن بصمت ثم انبطحن .

واقتربت جورفيتش منه :

– كيفك يا شاويش ؟

– اهلا . كيف حال تشيتفرتاك ؟

– نائمة . . . لم نشأ ان نوقظها .

– تصرف سليم . كونى بجوارى للاتصال . لا تطلى برأسك .

– لن افعل .

اخذت طيور العقعق تقترب اكثر فاكثر . وفى بعض الاماكن ارتعشت قمم الخمائل . حتى لقد خيل لفيدوت يفجرافيتش انه سمع صرير حذاء لشخص يسير بخطوة ثقيلة . ثم بدا بعد ذلك وكأن كل شىء قد سكن ، حتى العقعق هدأ . ولكن الشاويش كان يعلم ان هناك من يجلس فى الخمائل عند طرف الغابة تماما . يجلسون ويحدقون فى شواطئ البحيرة ، وفى الغابة على الضفة الاخرى ، وفى السلسلة التى كان طريقهم يمر بها ، والتى كان يختبىء الآن فيها هو ومجنداته بخدودهن المحمرة من اثر النوم .

وحلت تلك اللحظة الغامضة التى يتحول فيها حدث الى حدث آخر ، وتحل النتيجة محل السبب وتولد الصدفة . اللحظة التى لا يلاحظها الانسان ابدا فى الحياة العادية ، اما فى الحرب ، حيث الاعصاب مشدودة الى اقصى درجات التوتر ، وحيث يبرز فى المقدمة من جديد المعنى البدائى للوجود : ان تنجو من الموت . . . هنا تصبح هذه اللحظة شيئا واقعيا ، مجسدا ومحسوسا ، وممتدة الى ما لا نهاية .

وهمس فيدوت يفجرافيتش بشفتيه فقط :

– هيا ، تقدموا . . . تقدموا . . . هيا . . .

واهتزت الخمائل البعيدة وخرج اثنان الى طرف الغابة بحذر . كانا فى معاطف تمويه رمادية خضراء . وكانت الشمس فى مواجهتهما مباشرة فرأى القومندان بوضوح كل حركة من حركاتهما .

تقدما نحو البحيرة بخطوات خفيفة كالقطط وقد وضعا اصابعهما على زنادى الرشاشين وتقوسا قليلا الى الامام . . .

ولكن فاسكوف لم يكن ينظر اليهما . ذلك لان الغصون خلفهما



ظلت تهتز ، ومضت تظهر من هناك ، من العمق ، اشباح رمادية خضراء ممسكة بالرشاشات على اهبة الاستعداد .

واخذت جورفيتش تعد بهمس :

– ثلاثة . . . خمسة . . . ثمانية . . . عشرة . . . اثنا عشر . . . اربعة عشر . . . خمسة عشر . . . ستة عشر . . . ستة عشر يا شاويش . . .

وسكنت الخمائل .

وطار العقعق مرسلا صياحا بعيدا . وبمحاذاة الشاطئ سار ستة عشر المانيا ببطء وحذر نحو السلسلة الزرقاء . . .

## ٦

قضى فيدوت يفجرافيتش كل حياته ينفذ الاوامر . كان ينفذها حرفيا وبسرعة وبسرور ، لانه كان يرى مغزى حياته كله فى هذا التنفيذ الدقيق لمشيئة الآخرين . وكان الرؤساء يقدرون فيه تنفيذه للاوامر ، وهذا هو كل المطلوب منه . كان ترسا لنقل الحركة فى آلة ضخمة متقنة ، فكان يدور ويدير معه الآخرين دون ان يهتم بنقطة بداية هذا الدوران والى اين يتجه وكيف ستكون النهاية .

سار الالمان ببطء واصرار بمحاذاة شاطئ بحيرة فوب . . . ساروا نحوه مباشرة ، ونحو مجنداته الراقدات الآن خلف الصخور ، لاصقات خدودهن المشدودة بمؤخرات البنادق الباردة كما امرهن .

وقالت جورفيتش بهمس لا يكاد يسمع :

– انهم ستة عشر يا شاويش .

فرد دون ان يلتفت :

– اراهم . اذهبى الى المجموعة يا جورفيتش ، وقولى لاسيانينا ان تنقل المجندات حالا الى الموقع الاحتياطى . بهدوء وبخفية ! قفى ! الى اين ؟ . . . ارسلى الىّ بريتشكينا . ازحفى على بطنك يا مترجمة . . . من الآن لن نعيش الا زحفا على البطون .

وزحفت جورفيتش وهى تناور بين الاحجار بعناية . واراد القومندان ان يتوصل الى شىء ، الى قرار عاجل ، ولكن راسه كان

فارغا الى درجة تبعث على الياس . لم يكن فيه شيء سوى هذه الرغبة الملحة الممضة التى تربت فيه على مدى السنين : ان يبلغ . . . الآن . . . حالا . . . يبلغ القيادة بان الموقف قد تغير ، وانه لن يستطيع بقوته الصغيرة ان يحمى سكة حديد كيروفسكايا او قناة الرفيق ستالين .

بدات جماعته تنسحب : وسمع صوت ارتطام بندقية هنا ، وحجر سقط من مكانه هناك ، فاحس بوقع هذه الاصوات على جسده . ورغم ان الالمان كانوا لا يزالون بعيدين ولا يمكن ان يسمعوا هذه الاصوات ، الا ان القومندان كان يحس بخوف حقيقى . آه لو كان معه الآن مدفع رشاش بقرص محشو حتى النهاية وجندى معاون ! بل لا داعى للرشاش . . . لو كان معه ثلاثة رشاشات اتوماتيكية وثلاثة رجال مهرة . . . لكنه لم يكن يملك لا رشاشا ولا رجالا ، بل خمسا من الفتيات المرحات وخمس خزنات لكل بندقية . ولهذا تصبب العرق من الشاويش فاسكوف فى ذلك الصباح الندى من شهر مايو . . .

– يا شاويش . . . يا شاويش . . .

ومسح القومندان عرقه بطرف كمه بعناية ، وعند ذلك فقط التفت . حدق فى العينين المحملقتين فيه بذعر شديد وقال وهو يغمز بعينيه :

– لا تخافى يا بريتشكينا . . . من الافضل انهم ستة عشر . . . هل فهمت ؟

ولم يرضح الشاويش لماذا يعتبر ان ستة عشر مخربا المانيا افضل من اثنين . ولكن ليزا اومات براسها موافقة وابتسمت بتردد .

– هل تذكرين جيدا طريق العودة ؟

– نعم يا شاويش .

– انظرى : الى يسار الالمان حرش صنوبر . اعبريه . سيرى على طرف الغابة بحذاء البحيرة .

– حيث كنت تقطع الاغصان ؟

– برافو عليك يا بنت . . . ومن هناك سيرى الى الجدول ، مباشرة . . . لن تضلى الطريق هناك .



– انا عارفة يا شا . . .

– على مهلك يا ليزا ، لا تستعجلى . . . اهم شيء هو المستنقع ، فاهمة ؟ الممر هناك ضيق ، ومن اليمين واليسار الوحل المهلك . العلامة المميزة شجرة البتولا . ومنها مباشرة الى شجرتى الصنوبر فى الجزيرة .

– مفهوم .

– استريحى هناك قليلا . . . ضرورى . ثم اتجهى من الجزيرة نحو جذع الشجرة المحروق الذى قفزت انا منه الى المستنقع . سيرى نحوه بالضبط . . . وهو ظاهر بوضوح .

– مفهوم .

بلغى كيريانوفا عن الموقف . وفى هذه الاثناء نقوم نحن هنا بتدويخ الالمان قليلا . ولكننا لن نستطيع الصمود طويلا . . . انت عارفة .

– مفهوم .

– اتركى هنا البندقية والكيس والمعطف . اذهبى خفيفة .

– هل اذهب الآن ؟

– لا تنسى ان تاخذى العود قبل الخوض فى المستنقع .

– حسنا . . . اننى ذاهبة .

– طيرى يا ليزا .

واومات ليزا فى صمت وابتعدت عنه قليلا . اسندت البندقية الى الصخرة ، ثم فكت حزام الطلقات وهى تتطلع طوال الوقت الى الشاويش فى انتظار شيء ما ولكنه كان مشغولا بالنظر الى الالمان فلم ير عينيها المذعورتين . وتنهدت ليزا بحذر وشدت الحزام على خصرها بقوة وانطلقت تركض نحو حرش الصنوبر محنية القامة وهى تطوح ساقيها قليلا كما تفعل كل النساء فى العالم .

اصبح المخربون على مسافة قريبة جدا تسمح بتفحص ملامحهم ، بينما ظل فاسكوف راقدا على الصخور ينظر بطرف عينه الى الالمان ويراقب حرش الصنوبر الذى كان يبدا من السلسلة ويمتد الى طرف الغابة . اهتزت رؤوس الاشجار هناك مرتين ، كما لو كان عصفور حركها ، وعندئذ فكر بانه اصاب اذ ارسل ليزا بريتشكينا بالذات .

وعندما اطمأن الى ان المخربين لم يلاحظوا جندى اتصاله انزل ابرة الامان فى بندقيته وهبط خلف الصخرة . والتقط سلاح ليزا وجرى عائدا الى الخلف وهو يختار بقوة الحدس موطئ قدميه حتى لا يسمع وقعهما .

– يا شاويش ! . .

ارتمين عليه كمـــا ترتمى العصافير على القنب . . . حتى تشيتفرتاك اطلت برأسهـــا من بين المعاطف . هذا خرق للنظام بلا شك ، ومن الواجب ان يصيح فيهن ويأمر ، وينهر اسيانينـــا لانها لم تنظم الحراسة . وبالفعل فتح فمه وعقد حاجبيه كمـــا ينبغى لقائد ، وما ان اطل فى عيونهن المنزعجة حتى قال بلهجـــة من يخاطب مجموعة عمال :

– احوالنا سيئة يا بنات .

واراد ان يجلس على الحجر ، ولكن جورفيتش امسكتـــه فجأة وفرشت معطفها بسرعة على الحجر ، فهز راسه لها شاكرا ثم جلس واخرج كيس التبغ . جلسن امامه صفا . وتابعنه بصمت وهو يلف السيجارة . ونظر فاسكوف الى تشيتفرتاك وسالها :

– هه ، كيف حالك ؟

فقالت بابتسامة فاشلة اذ لم تطاوعها شفتاها :

– لا بأس . . . نمت جيدا .

– اذن فهم ستة عشر . . . – حاول الشاويش ان يكون هادئا ولذلك كان يزن كل كلمة . . . – ستـــة عشر رشاشـــا قوة محسوسة . ولن نستطيع ايقافها بالمواجهة . كما اننا لا نملك الا ان نوقفها . وسيكونون هنا بعد ثلاث ساعات ، هكذا ينبغى ان نتوقع .

وتبادلت اسيانينا مع كوميلكوفا النظرات . ومسحت جورفيتش على جونلتها عند الركبة . اما تشيتفرتاك فنظرت اليه بملء عينيها دون ان تطرف . كان القومندان الآن يسمع ويرى ويلاحظ كل ما حوله ، رغم انه بدا منهمكا فى التدخين والتطلع الى سيجارته .

ثم قال بعد فترة :

– لقد ارسلت بريتشكينا الى التحويلة . وعلينـا ان ننتظر وصول النجدة فى المساء وليس قبل ذلك . واذا دخلنا معركة مع الالمان فلن نصمد حتى المساء . لن نصمد فى اى موقع ، لان معهم ستة عشر رشاشا .

فسالت اسيانينا بصوت خافت :

– حسنا ، وهل نكتفى بالنظر اليهم وهم يعبرون ؟

فقال الشاويش :

– لا نستطيع ان نتركهم يعبرون السلسلة . يجب ان نضللهم ، ندوخهم ، نجعلهم يلتفون حول بحيرة ليجونتوفو . . . ولكن كيف ؟ بالقتال لن نستطيع . . . هيا قدموا اقتراحاتكم .

كان اكثر ما يخشـــاه ان يكتشفن حيرته وارتباكـــه . ان يستشعرن ذلك بحدسهن الخفى ، وعندئذ يضيع كل شىء . يضيع تفوقه عليهن وارادته القيادية ومعها ثقتهن فيـــه . ولذلك كان يتحدث بهدوء متعمد ، ببساطة وبصوت منخفض . ولذلك كان يدخن



بهذه الطريقة وكانه متربع عند جيرانه . ولكنه كان يفكر ، ويفكر ، ويقلب الافكار فى مخه الثقيل ويتلمس كل الاحتمالات .

وكبداية امر جنوده ان يفطرن . فحاولن الاحتجاج لكنه زجرهن ، واخرج قطعة الشحم من كيسه ، ولم يعرف ايهما اثر عليهن اكثر : قطعة الشحم ام الامر ، لكن المؤكد انهن بدأن يمضغن بحيوية . واسف فيدوت يفجرافيتش لتسرعه بارسال ليزا دون افطار فى تلك الرحلة الطويلة .

وبعد الافطار حلق القومندان ذقنه بعناية بالماء البارد . كانت معه موسى ابيه ، صنعها بنفسه . لم تكن موسى . . . بل الروعة بعينها ، ومع ذلك فقد جرح ذقنه فى موضعين . ووضع عليهمـــا قطعتين من ورق الصحف ، واخرجت كوميلكوفا من كيسها زجاجة كولونيا وطهرت له الجرحين .

كان يفعل ذلك بتؤدة وهدوء ، ولكن الوقت كان يمضى والافكار فى راسه تزوغ كصغار السمك فى الماء الضحل . ولم يتمكن ابدا من حصرها فاخذ يتحسر لانه لا يستطيع ان يتناول الآن فاسا فيقطع بعض الخشب ، عندئذ كانت نفســـه ستستقر وتترسب الشوائب ويجد مخرجا من هذا الوضع .

بالطبع لم يات هولاء الالمان الى هنا من اجـــل الدخول فى المعركة . وهذا قد فهمه جيدا . كانوا يسيرون فى الاماكن المقفرة ، بحذر ، ويرسلون مقدمة للاستطلاع البعيـــد ، فلماذا ؟ لكيلا يكتشفهم الخصم ، ولكيلا يضطروا الى الاشتباك ، ولكى يمروا هكذا بهدوء وخفية عبر الكمائن المحتملة نحو هدفهم الاساسى . ايكون من المفيد ان يروه بينما يتظاهر هو بعدم رؤيتهم ؟ . . اذن فربما انسحبوا الى مكان آخر ليعبروا منه . وهذا المكان الآخر هو الالتفاف حول بحيرة ليجونتوفو . . . اى مسيرة يوم كامل .

ولكن مَنْ عنده حتى يظهره لهم ؟ اربع فتيات وهو نفسه . حسنا ، سيتوقفون ، ثم يرسلون مجموعة استطلاع ، حسنا ، ثم يدرسونهم ويكتشفون انه ليس فى هذا الموقع سوى خمسة . وبعد ذلك ؟ بعد ذلك يا شاويش فاسكوف لن ينسحب الالمـــان الى اى مكان . سيطوقون مجموعتك دون اطلاق النار ، وبخمس طعنـــات بالخناجر يقضون عليها كلها . فليسوا فى الواقع حمقى حتى يهربوا

من وجه اربع فتيات وشاويش لا يحمل سوى مسدس . . .

عرض فاسكـــوف كل هذه الافكار على مجنداته : اسيانينـــا وكوميلكوفا وجورفيتش . اما تشيتفرتاك فكانت فى الحراسة . عرضها دون ان يخفى شيئا ثم اضاف :

– اذا لم نتوصل خلال ساعة او ساعـــة ونصف الى حل آخر فسنتصرف كما قلت انا . استعدوا .

استعدوا . . . وماذا لديهن ليستعددن ؟ اللهـــم الا للعالم الآخر . . . ولمثل هذا الاستعداد كلمـــا قصرت الفترة كان ذلك افضل . . .

ومع ذلك فقد استعد . اخرج من الكيس قنبلة يدوية ، ونظف المسدس ، وسن الخنجر على الصخرة . ذلك هو كل استعداده ، اما البنات فلم يكن لديهن ما يفعلنه حتى هذا . تبادلن همسات ما وهن يتجادلن بعيدا عنه ، ثم جئن اليه .

– يا شاويش . . . وماذا لو قابل الالمان قاطعى الاشجار ؟

لم يفهم فاسكوف . . . اى قاطعى اشجار ؟ اين ؟ الآن حرب ، والغابات خاوية ، وقد راين ذلك باعينهن . وبدات الفتيات يشرحن له ففهم . ان الوحدة العسكرية ، ايا كانت ، لها موقـــع محدد ، وجيرانها معروفون ، والحراس فى جميع الاركان . اما قاطعو الاشجار فهم فى الغابة ، ومن الممكن ان ينتقلوا من مكان لآخر ، ولن تعرف لهم مكانا . فهل سيحاول الالمان البحث عنهم ؟ من المستبعد . فهذا خطر عليهم . اذ لو غفلوا قليلا فسيكتشفهم قاطعو الاشجار ويبلغون عنهم الجهات المسئولة . فلا احد يدرى كم عدد هؤلاء القاطعين فى الغابة ولا اين هم وما هى اتصالاتهم . . .

– برافو يا بنات . . . انتم نسور فعلا !

وكان هناك خلف الموقع الاحتياطى نهر صغير ، ضحل ولكنه صاخب . وخلف هذا النهير ومن عند الماء مباشرة كانت تمتد غابة كثيفة من اشجار الحور وكتل الاشجار التى اسقطتها العواصف وادغال الشوح . وكانت كثيفة بحيث لا تخترقها العين لابعد من خطوتين ، ولا يمكن لافضل منظار مكبر ان ينفذ خلالها ليعرف ما يجرى بداخلها ويحدد عمقها . وكان هذا هو المكان الذى اختاره الشاويش فى ذهنه عندما قرر تنفيذ خطة الفتيات .



وضع تشيتفرتاك وجورفيتش فى الوسط تماما ليصطدم بهمـــا الالمان . وامرهما ان تشعلا نارا بدخان كثيف ، وان تتصايحا حتى ترن الغابة . ومع ذلك فلا يجب ان تطلا من بين الخمائل . . . فقط تظهران هنا وهناك دون ان تخرجا تماما . وامرهما ان تخلعا حذاءهما. نعم ، الحذاء والعمرات والاحزمة ، اى كل ما يدل على الصفة العسكرية.

وكانت طبيعة المكان تفرض على الالمان محاولة الالتفاف حول النيران من اليسار فقط ، فمن اليمين كانت الصخور المنحدرة بشدة تطل على النهر مباشرة ، ولم يكن هناك مكان مريح للعبور . ولكن لكى يكون على اطمئنان تام وضع اسيانينـــا هناك مزودة بنفس الاوامر : ان تصيح وتلوح هنا وهناك وتشعل النار . واخذ على عاتقه الجناح الايسر ومعه كوميلكوفا ، فلم يكن هناك غيرهمـــا للتغطية ، خاصة وان شاطئ النهر كله من هناك كان واضحا ، وفى حالة ما اذا قرر الالمان عبور النهر رغم كل شىء ، كان بوسعه ان يقتل اثنين او ثلاثة حتى تتمكن الفتيات من الهروب والانسحاب .

لم يكن امامهم متسع من الوقت ، فعزز فاسكوف الحراســـة بشخص آخر ، وانهمك مع اسيانينا وكوميلكوفـــا على عجـــل فى الاستعداد . وبينما كانتا تحضران الحطب للنار اخذ هو يقطـــع الاشجار بالفأس غير عابئ بالضجة (فليسمعوا وليستعدوا !) . كان يختار الاشجار العالية حتى يحدث سقوطها ضجة ولا يجتثها حتى النهاية ، بل يتركها واقفة بحيث تكفى دفعة لاسقاطها ، ثم يسرع الى غيرها . وكان العرق يحرق عينيه والبعوض يلسعه دون رحمة ، ولكن الشاويش كان يجتث ويجتث وهو يلهث حتى جاءت جورفيتش من القطاع الامامى . ولوحت بيدها من الناحية الاخرى :

– انهم قادمون يا شاويش ! . .

فقال الشاويش :

– كل فى مكانه يا بنات . . . فقط ارجوكـــم بشدة . . . احذروا . . . اظهروا من خلف الاشجار لا من خلف الخمائل ، وصيحوا بصوت رنان . . .

وتفرقت مجنداته ، الا جورفيتش وتشيتفرتاك فقد تأخرتا على الشاطئ المقابل اذ لم تستطع تشيتفرتاك ان تفك رباط الحذاء الذى صنعه لها . وذهب الشاويش اليها وقال :

– هات احملك عبر النهر .
– ما هذا الذى تقول يا شاويش . . .
– انتظرى قلت لك . الماء كالثلج وانت ما زلت مريضة .
وتفحصها بنظراته ثم حملها تحت ابطه (حمل تافه لا يزيد عن ثلاثة بودات لا اكثر) . ولفت يدها حول عنقه ، وفجأة احمرت . . . يالها من حمقاء ! احمرت حتى رقبتها وقالت :
– كأنك تعامل طفلة . . .
واراد الشاويش ان يمزح معها ، فليس ما يحمله جذع شجرة ، ولكنه قال شيئا آخر تماما :
– لا تجرى كثيرا فى الاماكن الرطبة .
كان الماء يصل الى ركبتيه ، باردا الى درجة الالم . وامامه كانت تخوض جورفيتش مشمرة جونلتها . وكانت تنقل ساقيها النحيلتين وتشوح بالحذاء لتحفظ توازنها . والتفتت وقالت :
– ما ابرد الماء . . . برر ! . .
واسدلت جونلتها فورا وتركت ذيلها يجرجر فى الماء .
فصاح القومندان بغضب :
– ارفعى ذيلك !
فتوقفت وابتسمت وهى ترد :
– ليس هذا الامر واردا فى اللوائح يا فيدوت يفجرافيتش . . .
حسنا ، لا بأس . . . ما زلن يمزحن . واعجب هذا فاسكوف فعاد بمزاج طيب الى جناحه الايسر ، حيث كانت كوميلكوفا قد اشعلت النار . وصاح بصوت عال :
– هيا يا بنات . . . اسرعوا ، اسرعوا . . .
وردت عليه اسيانينا من بعيد :
– او – هو – ه . . . ايفان ايفانيتش ، ارسل الينا العربة ! تصايحن ، واسقطن الاشجار ، واشعلن النيران . وكان الشاويش يصيح من حين لآخر ليسمع الالمان صوت رجال ايضا . ولكنه كان معظم الوقت كامنا يراقب الخمائل على الشاطئ الآخر بانتباه .
ومر وقت طويل وهو لا يستطيع ان يلحظ شيئا فى الجانب الآخر . بحت حلوق مجنداته من الصراخ واسقطت اسيانينا



وكوميلكوفا جميع الاشجار التى اجتثها ، وارتفعت الشمس عاليا فوق الغابة واضاءت النهر ، بيد ان الخمائل فى الجانب المقابل ظلت صامتة دون حركة .
وهمست كوميلكوفا فى اذنه :
– ربما انسحبوا ؟
الشيطان يعلم ، ربما انسحبوا ، فليس فاسكوف منظارا ، وربما يكون فاته ان يلاحظهم وهم يقتربون من الشاطئ زحفا . انهم ايضا رجال محنكون ، ففى مثل هذه المهمة لا يرسلون ايا من كان . . .
كان يفكر هكذا . ولكنه قال باقتضاب :
– مهلا .
وعاد من جديد يصوب نظراته الى هذه الخمائل التى درس ادق تفاصيلها . حدق حتى دمعت عيناه من شدة التحديق . رمش ومسح الدمعة براحته وانتفض . . . فقد رأى عبر النهر ، وامامه مباشرة تقريبا ، الحرش يهتز وتتباعد غصونه ، وظهر فى الفرجة بوضوح وجه شاب بلحية كثة بلون الصدأ .
ومد فيدوت يفجرافيتش يده الى الخلف ولمس الركبة المستديرة وضغط عليها . فمست شفتا كوميلكوفا اذنه وهى تهمس :
– اراه . . .
ثم ظهر آخر ، اقصر قليلا من زميله . خرج الاثنان الى الشاطئ خفيفين بدون جربنديات . اشرعا رشاشيهما وتفحصا بعيونهما الشاطئ المواجه لهما الذى يعج بالاصوات .
وشعر فاسكوف بوخزة فى قلبه : انهما جنديا استطلاع ! اذن فقد قرروا مع ذلك ان يجسوا الغابة ويحصوا قاطعى الاخشاب ليكتشفوا بينهم ثغرة ينفذون منها . يالللشيطان ، لقد ضاع كل شىء . . . خطته كلها ، والصراخ ، والدخان ، والاشجار المقطوعة . . . لم يفزع الالمان . سيعبرون النهر الآن ويندسون فى الخمائل ويزحفون كالثعابين على صوت الفتيات نحو النار والضجة ، ويحصونهن على اصابع اليد فيفهمون كل شىء . . . يفهمون اننا اكتشفناهم . . .
واخرج فيدوت يفجرافيتش مسدسه برفق وهو يخشى ان يهز

غصنا . هذان الاثنان يستطيع قطعا ان يقضى عليهما وهما بعد فى الماء يقتربان . وبالطبع سيفتحون عليه النار من بقية الرشاشات . حسنا ولكن الفتيات سوف يتمكنّ من الانسحاب والاختفاء . لـــو يستطيع ان يبعد عنه كوميلكوفا . . .

ونظر خلفه . كانت كوميلكوفا راكعة على ركبتيها تنزع عن نفسها السترة بغضب ، ثم القت بها على الارض وقفزت كاشفـــة نفسها .

فصاح فاسكوف همسا :

– قفى ! . .

ولكن جينكا نادت بصوت رنان :

– يا رايا ، يا فيرا ، هيا نستحم . . .

ومضت نحو النهر مباشرة وهى تحطم فى طريقها الاغصان .

ولم يدر فيدوت يفجرافيتش لماذا التقط سترتها وضمها الى صدره ، بينما كانت كوميلكوفا بجسدها الريان قد وصلت الشاطئ الحجرى الذى تغمره الشمس .

واهتزت الاغصان المقابلة مخفية الاشباح الرمادية الخضراء . ونزعت جينكا الجونلة ببطء ، ثم نزعت القميص . ومسحت بيديها على سروالها الاسود ، وفجأة غنت بصوت عال رنان :

ازهرت اشجار التفاح والكمثرى
وانتشر الضباب فوق النهر . . .

آه . . . ما اجملها الآن . . . جميلة الى درجة معجزة ! هيفاء ، بيضاء البشرة ، بضة . . . على بعد عشر خطوات من الرشاشات . كفت عن الغناء وخطت فى النهر واخذت تطرطش المـــاء فى صخب ومرح . وطار الرذاذ وهو يلمع فى الشمس وانزلق على الجسد اللدن الدافئ ، بينما حبس القومندان انفاسه وهو يتوقع برعب انطلاق الرصاص من الرشاشات . الآن . . . الآن سيطلقون النار فتنثنى جينكا وتشيح بيديها ثم . . .

كانت الخمائل صامتة .

وصاخت كوميلكوفا بمرح ورنين وهى ترقص فى الماء :

– هيا نستحم يا فتيات ! صحن ايفان ايضا . . . ايفان . . . اين انت ؟

القى فيدوت يفجرافيتش سترتهـــا ودس مسدسه فى القراب وزحف على ركبتيه بسرعة الى وسط الدغل ، والتقط الفاس وركض قليلا ثم اغمده بحقد فى شجرة صنوبر وصاح :

– اى . . . ى ، انا جاى . . . سنأتى حالا ، انتظرى . . . اوو – اوو . . .

لم يقطع فى حياته شجرا بمثل هذه السرعة . . . من اين جاءته هذه القوة ؟ وضغط بكتفه على الشجرة واسقطها فوق شجيرات جافة لتحدث جلبة . وانطلق عائدا وهو يلهث الى مكانه السابق واطل .

كانت جينكا تقف على الشاطئ ، احد جنبيها نحوه والآخر نحو الالمان . وكانت ترتدى قميصها الرقيق بهدوء فيلتصـــق حريره بجسدها ويبتل ، ليصبح شفافا تقريبا تحت اشعة الشمس المائلة الساقطة من وراء الغابة . كانت بالطبع تعرف ذلك ، ولهذا اخذت تنشر شعرها على كتفيها ببطء وهى تتثنى بنعومة . ومن جديد عاد الرعب الاسود يحرق فاسكوف وهو يتوقع دفعـــة من الرشاشات تتفجر الآن من وراء الخمائل فتحصد هذا الجسد الطافح بالشباب وتشوهه .

ونزعت جينكا سروالها الاسود المبلل من تحت القميص فشعت تلك المنطقة المحرمة ببياض خاطف ، ثم عصرت سروالها ونشرته على الصخور بعناية . وجلست بالقرب منه ومدت ساقيهـــا وعرضت للشمس شعرها المرسل حتى الارض .



وظل الشاطئ المقابل صامتا . ظل صامتا ولم تهتز الغصون فى اى مكان منه . ورغم نظرات فاسكوف المتفحصة فلم يستطع ان يدرك ان كان الالمان ما زالوا هناك ام انسحبوا . ولم يكن ثمـــة متسع للتخمين ، فنزع القومندان سترته بسرعة ودس مسدسه فى جيب سرواله ومضى نحو الشاطئ فى صخب وهو يكسر فى طريقه الاغصان الجافة :

– اين انت ؟

ارادها ان تخرج من فمه صيحة مرحة فلم يستطـــع اذ غص حلقه . لقد خرج من وراء الخمائل الى المكان المكشوف فكاد قلبه يقفز من بين ضلوعه من شدة الخوف . واقترب من كوميلكوفـــا وقال :

– اتصلوا بنا من المركز . . . سيرسلـــون السيارة حالا . البسى اذن ملابسك وكفاك استلقاء فى الشمس .

كان يتحدث بصوت عال ليسمع الجانب الآخر ، ولم يسمع ما ردت به جينكا ، فقد كان كله الآن هناك ، فى الشاطئ الآخر مركزا كل اهتمامه على الالمان ، حتى خيل اليه انه لو تحركت هناك ورقة شجرة فسيسمعها ، ويستطيع ان يرتمى خلف هذه الصخرة ويسحب المسدس . ولكن يبدو انه لم يتحرك هناك شىء حتى الآن .

وجذبته جينكا من يده فجلس بجوارها ، وفجأة رآها تبتسم ، وفى الوقت نفسه شاهد عينيها مفتوحتين الى النهاية ، مليئتين بالذعر كانما بالدموع . وكان هذا الذعر حيا ، ثقيلا كالزئبق .

فقال فاسكوف وهو يبذل كل طاقته ليبتسم :

– اذهبى من هنا يا كوميلكوفا .

اخذت تقول شيئا ما ، بل وضحكت ، ولكنه لم يكن يسمـــع شيئا . كان يفكر فى شىء واحد : ان يبعدها عن هنا ، ان يبعدها الى ما وراء الغصون حالا ، لانه لم يعد قادرا على معاناة احتمال مصرعها فى اية لحظة . ولكن كان عليه ان يجد مخرجا حتى يبدو كل شىء طبيعيا ، وحتى لا يكتشف الالمان الملاعين انها مجرد لعبة وانهم يضللونهم .

– ما دمت لا تريدين بالذوق فسافرج عليك العالم ! – صاح الشاويش فجأة وخطف ملابسها من على الصخرة – هيا ، الحقينى ! . .

وصرخت جينكا كما ينبغى وقفزت واقفة وركضت فى اثره . وفى البداية ركض فاسكوف على الشاطئ وهو يزوغ منها ، ثم انسل خلف الشجيرات ولم يتوقف الا بعد ان توغل فى الغابة .

– البسى . . . كفى لعبا بالنار . . . كفى !

واستدار موليا لها ظهره ومد يده بالجونلة ، ولكنها لم تاخذها منه فظلت يده ممدودة . اراد ان يسبها ، غير انه التفت فراى المجندة كوميلكوفا جالسة على الارض منكمشة ، مغطية وجهها بيديها ، وكتفاها المستديرتان تهتزان بشدة تحت حمالتى القميص الرفيعتين . . .

لقد ضحكوا . . . ولكن ذلك كان فيما بعد . . . عندما علموا ان الالمان انصرفوا . ضحكوا من اسيانينا التى بح صوتها ، وجورفيتش التى احرقت جونلتها ، وتشيتفرتاك الملوثة ، وجينكا كيف خدعت الالمان ، والشاويش فاسكوف . قهقهوا حتى سالت دموعهم ، حتى الارهاق ، وهو ايضا ضحك معهن وقد نسى فجاة انه القائد ، ولم يعد يذكر الا خداعهم للالمان . . . وكيف لعبوا بهم بجراة وشقاوة ، حتى جعلوهم الآن يسيرون فى رعب وقلق يوما كاملا حول بحيرة ليجونتوفو .

وكان الشاويش يردد فى فترات توقفهن عن اللهو :

– كل شىء خلاص الآن ! . . خلاص يا بنات . . . لن يكون امامهم مهرب الآن . . . طبعا اذا استطاعت بريتشكينا ان تصل فى الوقت المناسب .

فقالت اسيانينا بصوت مبحوح :

– ستصل . . . فهى سريعة .

وضحكوا جميعا من جديد لان صوتها بح بصورة مضحكة .

– اذن فلنشرب قليلا من اجل هذا – واخرج من كيسه زمزميته العزيزة – فلنشرب يا بنات نخب ساقيها السريعتين ورؤوسكم النيرة ! . .

وسرعان ما بدأت الاستعدادات ، ففرشن المناشف على الاحجار ، واخذن يقطعن الخبز والشحم ويقسمن السمك . وبينما كن يزاولن



هذه الاعمال النسائية جلس الشاويش بعيدا ، كما ينبغى ، واخذ يدخن منتظرا الدعوة الى المائدة ، وفكر بارهاق بانهم قد تجاوزوا الآن اصعب شىء . . .

## ٧

عاشت ليزا بريتشكينا اعوامها التسعة عشر كلها وهى تتطلع الى الغد . كانت تستيقظ كل صباح على احساس داخلى عجول بالسعادة الغامرة المقبلة ، ولكن سعال امها المنهك كان يؤجل على الفور هذا اللقاء مع العيد الى الغد . لم يكن يقتله او يمحوه ، بل كان يؤجله .

وكان ابوها يقول محذرا فى صرامة :

– ستموت امنا يا ليزا .

على مدى خمس سنوات كان يحييها بهذه الكلمات كل يوم . وكانت ليزا تذهب الى الفناء لتطعم الخنزير والنعاج وحصان الحكومة العجوز . ثم تحمم امها وتغير لها ملابسها وتطعمها بالملعقة . ثم تعد الغداء وتنظف البيت ، وتتفقد مناطق الغابة التى يحرسها ابوها ثم تعدو الى اقرب مخزن ريفى فتشترى الخبز . وكانت صديقاتها قد تخرجن من المدرسة منذ زمن بعيد ، فمنهن من سافرت للدراسة ، ومنهن من تزوجت ، بينما كانت ليزا تطعم وتحمم وتنظف ، ثم تطعم من جديد . وتنتظر الغد .

ولم يرتبط هذا الغد فى ذهنها ابدا بموت امها . لم تكن تذكر الا بصعوبة متى كانت امها صحيحة ، ولكن روح ليزا كانت عامرة بالحياة حتى لم يعد فيها مكان لفكرة الموت .

فخلافا عن الموت الذى كان ابوها يذكرها به بصرامة مملة ، كانت الحياة بالنسبة لها مفهوما واقعيا ومحسوسا . كانت الحياة تختفى فى احدى زوايا الغد المشرق ولكنها تتجنب حتى الآن منطقة الحدود النائية هذه فى قلب الغابات ، غير ان ليزا كانت تعلم عن يقين ان الحياة موجودة وانها مقدرة لها ويستحيل ان تتخطاها تماما مثلما يستحيل الا ياتى الغد . وكانت ليزا تجيد الانتظار .

فمنذ ان بلغت الرابعة عشرة من عمرها وهى تتعلم هذا الفن النسائى العظيم . فبعد ان اخرجها مرض امها من المدرسة اخذت فى البداية تنتظر العودة الى الدراسة ، ثم اصبحت تنتظر لقاء الصاحبات ، ثم الامسيات الخالية النادرة فى حلبة الرقص بجوار النادى ، ثم . . .

ثم حدث انه لم يعد لديها فجاة ما تنتظره . فمن صاحباتها من ظلت تدرس ، ومنهن من بدأت تعمل فى مكان بعيد عنها ، فى دائرة اهتماماتهن ، التى كفت ليزا مع الزمن عن الاحساس بها . اما الشبان الذين كانت فى وقت ما تستطيع ببساطة ويسر ان تقف معهم وتتبادل الحديث فى النادى قبل الحفلة فقد اصبحوا الآن غرباء متكبرين . وبدأت ليزا تنعزل وتركن الى الصمت ، وتبتعد عن اللقاءات المرحة ، ثم انقطعت فيما بعد عن التردد على النادى .

وهكذا مضت طفولتها ومعها الاصدقاء القدامى . ولم يكن لديها اصدقاء جدد ، لان احدا لم يكن يعرج على ضوء مصباح الكيروسين المنبعث من نوافذ بيتهم سوى حراس الغابة العتاة . وكانت ليزا تشعر بالمرارة والخوف لانها لم تكن تدرى ما الذى سيحل محل طفولتها . ومر الشتاء فى القلق والوحشة ، وفى الربيع جاء ابوها باحد الصيادين معه ، وقال لها :

– يريد ان يسكن عندنا . . . ولكن اين ؟ ان امنا تموت .

فقال الصياد :

– ربما لديكم مخزن للدريس ؟

فقالت ليزا بتردد :

– الجو ما زال باردا .

– فهل تعطوننى معطفا ثقيلا ؟ . .

وظل ابوها طويلا يشرب الفودكا مع ضيفه فى غرفة المطبخ . ومن وراء الجدار الخشبى كان يتردد سعال امها . وركضت ليزا الى القبو فاحضرت بعض الكرنب ، وقلت بيضا ثم اخذت تتنصت .

كان ابوها المتكلم معظم الوقت . وكان يجرع الفودكا اكوابا ثم يلتقط الكرنب من الوعاء بيديه ويحشره فى فمه المغطى بالشعر ولا يكف عن الكلام وهو يغص :

– مهلا ، مهلا يا اخى . تقول الحياة كالغابة ، ينبغى تخفيف



نباتاتها وتنظيفها ، اليس كذلك ؟ مهلا . تقول يجب ازالة الاشجار الجافة والجذوع والشجيرات المريضة . هكذا ؟

فرد الضيف مؤكدا :

– ينبغى تنظيفها لا تخفيفها ، الاعشاب الضارة تقتلع من الحقول .

فقال الاب :

– انتظر ، انتظر . اذا كانت غابة فنحن حراسها نفهم ذلك . نعم ، اذا كانت غابة فهذا مفهوم . ولكن اذا كانت الحياة . اذا كان ما تتحدث عنه حيا يجرى ويصرخ . . .

– كالذئب مثلا . . .

فتحفز الاب وقال :

– الذئب ؟ . . الذئب يزعجك ؟ ولماذا يزعجك ؟ لماذا ؟

فابتسم الصياد وقال :

– لان له انيابا .

– وهل ذنبه انه ولد ذئبا ؟ هل هو مذنب ؟ . . لا يا اخى . . . نحن الذين حملناه الذنب ، دون ان نسأله . فهل يرضى ضميرك عن هذا ؟

– ماذا تقول يا بتروفيتش . . . الذئب والضمير مفهومان لا يجتمعان .

– لا يجتمعان ؟ . . حسنا ، والذئب والارنب هل يجتمعان ؟ انتظر ، لا تضحك يا اخى ! حسنا . . . امرنا ان نعتبر الذئاب اعداء للاهالى . حسنا. لنفرض اننا قمنا جميعا فابدنا جميع الذئاب فى روسيا كلها . . . جميع الذئاب ! . . فما النتيجة ؟

فابتسم الصياد وقال :

– ما النتيجة ؟ صيد وفير . . .

– بل قليل ! . . – وصرخ الاب وضرب المنضدة بقبضتيه المشعرتين – قليل ، فاهم ؟ الحيوانات بحاجة الى الجرى لكى تبقى صحيحة . . . بحاجة الى الجرى يا اخى ، فاهم ؟ ولكى تجرى لا بد من الخوف . الخوف من ان تقع فريسة . هكذا . طبعا من الممكن تلوين الحياة بلون واحد . . . ممكن ، ولكن لاى غرض ؟ لراحة البال ؟ ولكن الارانب ستتسمن ويصيبها الكسل ، وستكف عن العمل

بدون الذئاب . فماذا اذن ؟ هل نبدأ فى تفريخ ذئابنا ام نستوردها من الخارج ؟

وفجأة سأل الضيف بصوت خافت :

– بالمناسبة ، الم تصادر الثورة اموالك يا ايفان بتروفيتش ؟

فتنهد حارس الغابة وقال :

– ولماذا تصادر اموالى ؟ كل ما عندى ذراعان وزوجة وابنة . ليس مفيدا لهم مصادرة اموالى . . .

– لهم ؟

– حسنا ، لنا . . . – وصب قليلا من الفودكا فى قدحه وقرعه بقدح ضيفه – لست ذئبا يا اخى ، اننى ارنب . – وشرب ما تبقى فى قدحه ونهض وهو يزيح الطاولة بجلبة ، وكان مشعثا كالدب .

– ساذهب لانام . ابنتى ستوصلك وتدلك على المكان .

كانت ليزا جالسة بهدوء فى الركن . وكان الصياد من اهل المدينة ، ابيض الاسنان ولا يزال فى سن الشباب فشعرت بالخجل . كانت تحدق فيه بلا انقطاع ، ولكنها تحول عينيها فى الوقت المناسب خشية ان تلتقى نظراتهما ، خشية ان يخاطبها فلا تستطيع ان ترد او ترد ردا غبيا .

– ليس ابوك حذرا .

فقالت بعجلة :

– انه من الفدائيين الحمر .

فابتسم الضيف ناهضا :

– اعرف ذلك . حسنا ، دلينى على المرقد يا ليزا .

كان مخزن الدريس مظلما كالقبو . ووقفت ليزا عند المدخل وفكرت قليلا ثم اخذت من الضيف المعطف الميرى والوسادة المغضنة وقالت :

– انتظر هنا .

وصعدت على السلم المهتز الى اعلى ، وفرشت الدريس ووضعت الوسادة . وكان من الممكن ان تهبط الآن وتدعو الضيف ، ولكنها ظلت تزحف فى الظلام على دريس العام الماضى وهى تفرشه وتوزعه بحيث يكون مريحا فى النوم ، دون ان تكف عن التنصت المتوتر .



لم تكن لتقر بينها وبين نفسها ابدا بانها تنتظر ان تسمع صرير اقدامه على السلم ، وترغب فى لقاء متوتر ومضطرب معه فى الظلام ، وتريد ان تحس بانفاسه وهمسه ، بل وخشونته . كلا ، لم تدر بخلدها اية افكار عن الخطيئة ، ولكنها ارادت ان يهتز قلبها فجأة بكل عنف ، ارادت ان يلوح ثمة شىء ما غامض ، ساخن . . . يلوح ، ثم يختفى .

ولكن احدا لم يصعد على السلم ، فهبطت ليزا . كان الضيف جالسا يدخن عند المدخل فحذرته بغضب من ان يحاول التدخين فى مخزن الدريس .

فقال وهو يطفىء العقب بقدمه :

– انا اعرف . طابت ليلتك .

وانصرف لينام . وركضت ليزا الى البيت لتغسل الاوعية . وبينما كانت ترتبها فى مكانها اخذت بعناية شديدة وبابطا من المالوف بكثير تجفف كل طبق وهى ترتقب بخوف وامل طرقات على النافذة . ومرة ثانية لم يطرق احد . فاطفأت ليزا المصباح وانصرفت لتنام وهى تصغى لسعال امها المالوف وشخير ابيها الثمل .

وكان الضيف يغادر المنزل فى الصباح ولا يعود الا فى المساء جائعا مرهقا . وكانت ليزا تطعمه ، فيأكل على عجل ولكن دون لهفة فاعجبها ذلك . وبعد ان ياكل يذهب مباشرة الى مخزن الدريس وتبقى ليزا لانه لم يعد من الضرورى بعد الآن ان تجهز له فراش القش .

واستجمعت شجاعتها ذات مرة فسألته :

– لماذا لا تعود باى صيد ؟

فابتسم وقال :

– حظى سيىء .

فقالت دون ان تتطلع اليه :

– اصابك الهزال . هل هذه راحة ؟

– بل راحة رائعة يا ليزا . . . – وتنهد قائلا – ولكنها انتهت للاسف . غدا سارحل .

فسألت ليزا بصوت متهدج :

– غدا ؟

– نعم ، صباحا . دون ان اصيد شيئا ، شيء مضحك اليس كذلك ؟

فقالت ليزا بحزن :

– مضحك .

وانتهى حديثهما عند هذا الحد . وما ان انصرف حتى نظفت ليزا المطبخ على عجل وتسللت الى الفناء . وحامت طويلا حول الحظيرة وهى تتنصت الى سعال وزفرات الضيف وتقضم اظافرها ، ثم فتحت الباب بهدوء وصعدت الى مخزن الدريس بسرعة خشية ان تغير رايها .

وسال الضيف بصوت خافت :

– من هناك ؟ . .

– انا . . . ربما كنت بحاجة الى ترتيب . . .

فقاطعها :

– لا داعى . اذهبى فنامى .

وصمتت ليزا وهى جالسة فى ركن على مقربة منه فى المخزن المظلم الخانق .

– ماذا ، تشعرين بالملل ؟

فقالت بصوت لا يكاد يسمع :

– نعم .

– لا داعى للحماقات ، حتى بفعل الملل .

وخيل اليها انه يبتسم . فجلست غاضبة حاقدة عليه وعلى نفسها . لم تكن تدرى لماذا تجلس ، كما لم تدر لماذا جاءت . ولم تبك ابدا لانها كانت وحيدة والفت ذلك ، اما الآن فكان اكثر ما تود هو ان يشفق احد عليها ، ان يقول لها بضع كلمات رقيقة ويمسح على راسها ويواسيها ، بل ويقبلها – وان كانت لم تقر بذلك بينها وبين نفسها . ولكنها لم تستطع طبعا ان تقول له ان آخر قبلة هى تلك التى طبعتها امها على خدها منذ خمس سنوات ، وانها بحاجة الآن الى قبلة كضمان لذلك الغد الرائع الذى من اجله تعيش على وجه الارض .

وقال لها :



– اذهبى نامى . . . اننى متعب وسارحل مبكرا . وتثاءب طويلا وبلا اكتراث متعمد . فعضت ليزا شفتيها وانفلتت راكضة ، واصطدمت ركبتها بالسلم فلم تحس بالالم ، وانطلقت الى الفناء واغلقت وراءها الباب بعنف .

وسمعت فى الصباح اباها وهو يسرج «ديموك» ، وسمعت الضيف وهو يودع امها ، ثم صرير البوابة . وظلت مستلقية فى فراشها متظاهرة بالنوم والدموع تنساب من وراء جفنيها المغمضين .

وعند الغداء عاد ابوها ثملا . وافرغ من طاقيته على الطاولة قطعا مشرشرة من السكر المائل للزرقة ، وقال بدهشة :

– ضيفنا شخصية كبيرة ! انظرى الى السكر الذى امر بصرفه

لنا . لم نره فى متجرنا منذ عام . انظرى – ثلاثة كيلوجرامات كاملة ! . .

ثم صمت ، وفتش فى جيوبه طويلا ثم اخرج من كيس التبغ ورقة مجعدة .

– خذى .

«يجب ان تواصلى دراستك يا ليزا . فى الغابة ستستوحشين . تعالى فى اغسطس وسادبر لك مكانا فى المعهد والمسكن» .

ثم التوقيع والعنوان . . . ولا شىء اكثر ، حتى ولا كلمة تحية .

وبعد شهر ماتت امها . واصبح ابوها ، الذى كان عبوسا دائما ، كالوحش تماما ، ولا ينقطع عن الشراب . ومضت ليزا ، كما فى السابق ، تنتظر الغد ، وتوصد الباب جيدا قبل النوم اتقاء اصحاب ابيها . ولكن يوم الغد هذا اصبح منذ الآن مرتبطا ارتباطا وثيقا بشهر اغسطس . وعندما كانت تسمع صرخات السكارى خلف الجدار كانت تقرأ للمرة الالف الورقة المهترئة .

ولكن الحرب اندلعت . وبدلا من الذهاب الى المدينة ذهبت ليزا للمشاركة فى بناء التحصينات . وقضت الصيف كله تحفر الخنادق والاستحكامات المضادة للدبابات التى كان الالمان يتجنبونها ببراعة ، ووقعت فى التطويق مرارا وخرجت منه ، فعادت الى حفر الخنادق من جديد ، وفى كل مرة تتقهقر ابعد فابعد نحو الشرق . وفى اواخر الخريف وجدت نفسها فى مكان ما خلف فالداى فانضمت الى احدى وحدات المدفعية المضادة للطائرات ، ولذلك فهى تجرى الآن نحو التحويلة ١٧١ . . .

اعجبها فاسكوف على الفور ، عندما وقف امام طابورهن يرمش بعينيه الناعستين مضطربا . اعجبها كلامه القليل الحازم ورزانته الفلاحية ، وتلك الجدية الرجولية الخاصة التى تنظر اليها جميع النساء على انها ضمان لاستقرار الحياة العائلية . ولكن حدث ان جميع رفيقاتها المجندات اخذن يسخرن من القومندان . ولم تشارك ليزا فى مثل تلك الاحاديث ، بيد انها احمرت بشدة عندما قالت كيريانوفا العليمة ببواطن الامور ان الشاويش لم يصمد امام مفاتن ربة داره الرائعة ، احمرت وقالت :



– هذا غير صحيح !

فصاحت كيريانوفا بظفر :

– وقعت فى حبه ! . . يا بنات ، ليزا وقعت فى حب الشاويش ! فتنهدت جورفيتش بصوت عال :

– مسكينة يا ليزا !

وتعالت التعليقات والقهقهات فانفجرت ليزا بالبكاء وجرت الى الغابة .

ظلت تبكى وهى جالسة فوق الجذع حتى عثرت عليها ريتا اسيانينا .

– يا لك من عبيطة ، خذى الامور ببساطة . . . ببساطة ، فاهمة ؟

ولكن ليزا ظلت تعيش وهى تكاد تذوى من الخجل ، والشاويش يذوى من الخدمة ، وما كانت نظراتهما لتلتقى ابدا لولا هذه الحادثة . ولهذا كانت ليزا تطير عبر الغابة وكأنها تحلق باجنحة .

لقد قال لها الشاويش : سنغنى معا فيما بعد يا ليزا . . . سننفذ الامر الحربى وبعدها نغنى . . .

كانت ليزا تفكر فى كلماته وتبتسم وهى تخجل من ذلك الشعور العارم الذى كان يتفجر بين الحين والحين فيضرج وجنتيها الممتلئتين . وكانت مسترسلة مع افكارها عندما تجاوزت شجرة الصنوبر المعهودة . ولما وصلت الى المستنقع تذكرت عود الحطب ، ولكنها لم تشأ ان تعود الى الشجرة . كان هنا ما يكفى من الحطب فاختارت ليزا بسرعة عصا مناسبة .

وقبل ان تخوض فى وحل المستنقع اصاخت قليلا ثم نزعت عنها جونلتها .

وربطتها فى طرف العصا ، ودست طرف سترتها تحت الحزام بعناية وشدت السروال الميرى الازرق وخطت فى المستنقع .

فى هذه المرة لم يكن يسير امامها احد يشق لها وحل المستنقع .

واخذ الوحل الغليظ يلتصق بفخذيها وهى تشق طريقها بصعوبة وتترنح وتلهث . تقدمت خطوة خطوة والماء البارد يثلج اطرافها ، ولم تحول عينيها عن شجرتى الصنوبر فى الجزيرة .

ولكنها لم ترهب الوحل او البرد او التربة المتحركة الحية تحت قدميها . كان الشيء الرهيب هو الوحدة ، وهذا الصمت الخامد كصمت القبور ، الذى لف المستنقع البنى . واحست ليزا بذعر شبه حيوانى ، اخذ يتزايد فى داخلها مع كل خطوة فصارت ترتجف بضعف وخوار وهى تخشى ان تلتفت او تأتى بحركة طائشة او حتى تتنهد بصوت عال .

ولم تذكر بصورة واضحة كيف وصلت الى الجزيرة . خرجت زحفا على ركبتيها ثم ارتمت دافئة وجهها فى العشب العطن واجهشت بالبكاء . كانت تجهش وتمسح دموعها ملوثة خديها السمينين وترتعش من البرد والوحدة والخوف المزرى .

وقفزت واقفة ودموعها ما زالت تسيل . وعبرت الجزيرة وهى تنشق بانفها ، ثم حددت اتجاهها ، ودون ان تستريح او تستجمع قواها خاضت فى الوحل .

لم يكن فى البداية عميقا فهدات ليزا ، بل وشعرت بالمرح . بقى الجزء الاخير ، ومهما كان صعبا فقد كانت تليه الارض ، الارض الصلبة الحبيبة بعشبها واشجارها . فاخذت ليزا تفكر فى المكان الذى ستغتسل فيه وتسترجع فى ذاكرتها جميع البرك الصغيرة والخلجان ولا تدرى هل تغسل ملابسها ام تنتظر حتى تصل الى التحولية . لم يبق الا القليل لتبلغها ، وهى تذكر الطريق جيدا بجميع منعطفاته ، فقررت بعزم انها ستصل الى الموقع بعد ساعة او ساعة ونصف .

اصبح السير اصعب ، وبلغ الوحل ركبتيها ، ولكن الشاطىء الآخر كان يقترب مع كل خطوة ، واصبحت ليزا ترى بوضوح حتى ادق شروخ الجذع الذى قفز منه الشاويش حينذاك الى المستنقع . لقد قفز بشكل مضحك ، ولم يثبت على قدميه الا بصعوبة .

وعادت تفكر من جديد فى فاكسوف ، بل حتى ابتسمت . نعم سيغنيان ، حتما سيغنيان معا ، بعدما ينفذ القومندان الامر الحربى ويعود الى التحويلة . ولكن سيكون عليها ان تلجا الى حيلة صغيرة وتستدرجه مساء الى الغابة ، وهناك . . . هناك سنرى من الاقوى : هى ام ربة الدار ، التى ليس لديها من مزايا ، اللهم الا انها تعيش مع الشاويش تحت سقف واحد . . .



وتصاعدت فقاعة بنية ضخمة وانتفخت امامها . حدث ذلك فجاة ، وعلى مسافة قريبة جدا منها ، لدرجة انها لم تتمكن حتى من ان تصرخ واندفعت جانبا بحركة غريزية . كانت مجرد خطوة فى الجانب ، ولكن قدميها فقدتا على الفور الارض الصلبة تحتهما وتعلقتا فى فراغ لزج ، واطبق المستنقع بفكين ناعمين على فخذيها . وطفح الرعب الذى كان يتجمع منذ فترة طويلة على السطح فجاة ومرة واحدة ووخز قلبها بالم . وحاولت ليزا بكل قواها ان تتشبث وتعود الى الدرب فتحاملت على العصا بكل ثقلها . وانكسر العود الجاف بفرقعة فانكفأت ليزا فى الوحل البارد اللزج .

لم يكن تحتها ارض . وسحبها المستنقع من قدميها الى اسفل ببطء رهيب . واخذت ذراعاها تزيحان الوحل بلا فائدة ، فبدأت ليزا تختنق وهى تتلوى فى الوحل السائل . بينما كان الدرب على مقربة منها . . . لا يفصلها عنه سوى خطوة ، او نصف خطوة . . . بيد انه كان من المستحيل ان تقطع نصف الخطوة هذا .

— النجدة . . . النجدة . . . الحقونى . . .

وظلت الصرخة الوحيدة المرعبة ترن طويلا فوق المستنقع الصدىء اللامبالى . وحلقت فوق قمم الصنوبر وتشابكت مع اوراق الحرش ، وتهاوت فاصبحت حشرجة ، ثم صعدت ثانية بآخر قواها الى سماء مايو الصحو .

وظلت ليزا طويلا ترى هذه السماء الزرقاء الرائعة . وهمت وهى تتحشرج وتبصق الوحل ، همت نحو هذه السماء دون ان تفقد الامل .

وسبحت الشمس ببطء فوق قمم الاشجار ، وسقطت اشعتها على المستنقع ورات ليزا لآخر مرة نورها الدافىء ، الساطع الى درجة لا تطاق كأنه وعد بالغد . وظلت حتى اللحظة الاخيرة تؤمن بان الغد سياتى ، وانها ستراه . . .

## ٨

بينما كانوا يقهقهون ويمزون (طبعا بالتعيين الجاف) كان العدو قد انفصل وابتعد كثيرا . اى انه ، ببساطة ، هرب بعيدا عن

الشاطىء الصاخب والنساء الصارخات والرجال المختفين ، واحتمى بالغابات فاختفى كان لم يكن .

لم يرق هذا لفاسكوف . لقد كان خبيرا ، لا كمحارب فقط ، وانما كصياد ايضا ، فكان يعلم انه لا ينبغى ان تدع العدو او الدب يغيب عن نظرك . فالشيطان وحده يعلم ما الذى سيدبره العدو ، والى اين سيولى وجهه ، واين سيترك حراسه . اصبح حالهم هنا كعملية صيد فاشلة ، عندما لا تعود تعرف من الذى يصيد صاحبه : الدب الذى يطاردك ام انت الذى تطارد الدب . ولكى لا يحدث هذا ترك الشاويش فتياته على الشاطىء ، وانطلق مع اسيانينا بحثا عن العدو .

– افعلى مثلى يا مرجريتا . اذا توقفت توقفى ، واذا رقدت ارقدى ، فاللعب مع الالمان كاللعب مع الموت ، لذلك ضعى حواسك فى اذنيك . . . فى اذنيك وعينيك .

وسار فى المقدمة . من خميلة الى خميلة ، ومن صخرة الى صخرة . كان يحدق امامه لدرجة الالم ، ويضع اذنه على الارض ويتنصت ، ويشمشم الهواء . . . كان كله متاهبا كقنبلة يدوية . وبعد ان يصغى حتى تطن اذناه ، كان يشير بيده اشارة بسيطة فتسرع اسيانينا اليه . ويصيخان معا فى صمت ، التقاطا لصوت صرير ما او صيحة عقعق احمق ، ثم ينحنى الشاويش ثانية وينزلق كالظل الى الامام ، نحو المكمن التالى ، بينما تبقى ريتا فى مكانها تتنصت بنفسها ونيابة عنه .

وهكذا عبرا السلسلة ووصلا الى الموقع الاساسى ، ثم الى حرش الصنوبر ، الذى عبرته بريتشكينا فى الصباح نحو الغابة متخطية الالمان . كان كل شىء حتى الآن هادئا مسالما ، كانما لم يكن هناك مخربون ، ولكن فيدوت يفجرافيتش لم يسمح لا لنفسه ولا للرقيب الثانى اسيانينا ان يفكرا فى ذلك .

وخلف الحرش كان شاطىء بحيرة ليجونتوفو الصخرى الخفيف الانحدار والمغطى بالطحلب . وكانت الغابة تبدأ بعد الشاطىء بقليل ، ويمتد بينها وبينه حرج من اشجار البتولا المتشابكة وبعض اشجار الشوح القصيرة المتناثرة .

وتوقف الشاويش هنا ، وتفحص الحرج بمنظاره واصاخ



السمع ، ثم نهض قليلا وظل طويلا يشمشم النسيم الخفيف الذى كان ينزلق فوق المنحدر نحو سطح البحيرة الراكد . واستلقت ريتا بجواره فى استسلام ودون ان تند عنها حركة وهى تشعر بالاسى لملابسها التى بدأت تبتل فى الطحلب .

– اتشمين ؟ . . – سألها فاسكوف بصوت خافت ثم ضحك كانه يضحك فى سريرته – ها هو التمدن قد اوقع بالالمان . . . يريدون ان يشربوا القهوة .

– ولماذا تظن هكذا ؟

– رائحة دخان ، اذن فقد جلسوا يفطرون . ولكن هل كلهم هنا ، الستة عشر ؟ . .

وفكر قليلا ، ثم اسند بندقيته الى جذع الصنوبرة بعناية ، وشد الحزام على خصره حتى النهاية وجلس :

– يجب ان نعدهم يا مرجريتا لنعرف هل تخلف منهم احد . اسمعى ما ساقوله لك . اذا بدا اطلاق النار فانسحبى فى الحال . . . فى التو واللحظة . خذى البنات وامضوا نحو الشرق مباشرة ، حتى القناة . وهناك تبلغينهم عن الالمان ، وان كنت اظن انهم سيكونون على علم بذلك ، لان بريتشكينا ستصل الى التحويلة عما قريب . هل فهمت ما قلت ؟

– كلا . . . وكيف انت ؟

فرد الشاويش بحزم :

– دعيك من هذا يا اسيانينا . لم نات الى هنا لجمع الفطر والتوت البرى . اذا اكتشفنى الالمان فلن يتركونى حيا ، لا تشكى فى ذلك . ولهذا انسحبى فورا . هل الامر واضح ؟

فصمتت ريتا .

– كيف ينبغى ان تجيبى يا اسيانينا ؟

– ان اقول : واضح .

وابتسم الشاويش ثم انحنى وركض نحو اقرب صخرة .

وظلت ريتا تنظر فى اثره طوال الوقت ، ولكنها لم تلحظ متى اختفى ، كانما ذاب فجأة بين الاحجار المغطاة بالطحلب . وابتلت جونلتها واكمام السترة تماما ، فزحفت الى الوراء وجلست على صخرة وهى تصغى الى حفيف الغابة الهادىء .

كانت تنتظر مطمئنة تقريبا ، موقنة من انه لا يمكن ان يحدث شيء . كانت كل تربيتها قد وجهتها نحو توقع النهايات السعيدة فقط ، وكان التشكل فى النجاح بالنسبة لجيلها مساويا للخيانة تقريبا . ولقد مرت بها بالطبع لحظات شعرت فيها بالرعب وعدم الثقة ، ولكن الاحساس الداخلى بالنهاية الموفقة كان دائما اقوى من الظروف الواقعية .

ورغم ما بذلت ريتا من جهد فى الانصات ورغم انتظارها ، الا ان فيدوت يفجرافيتش ظهر فجاة ودون صوت ... اهتزت اغصان الصنوبر اهتزازا خفيفا فقط . وتناول البندقية فى صمت واوما لها ثم غاص فى الحرج . ولم يتوقف الا عندما بلغ الصخور .

– انت جندى سيىء يا اسيانينا . . . سيىء للغاية . ولم يكن يتحدث بغضب ، بل بقلق ، فابتسمت ريتا وسألت :

– لماذا ؟

– تربعت على الجذع وكانها دجاجة ترعى صغارها . لقد امرتك ان تنبطحى .

– الارض هناك رطبة جدا يا فيدوت يفجرافيتش .

فرد الشاويش ساخطا :

– رطبة . . . من حظك انهم يشربون القهوة ، والا لقضوا عليك فى لحظة .

– يعنى تخمينك صحيح ؟ . .

– انا لا اقرا الطالع يا اسيانينا . هناك عشرة ياكلون . . . رايتهم بعينى . واثنان فى الحراسة . . . ايضا رايتهما . والباقون على ما اظن يقومون بالحراسة فى الجهات الاخرى . يبدو انهم سيبقون مدة طويلة فهم يجففون جواربهم على النار . ولذلك فهذا انسب وقت لتغير موقعنا . ساتفحص المكان هنا ، اما انت يا مرجريتا فطيرى الى الجنود واحضريهم . بخفية ، وبدون ضحكات !

– مفهوم .

– نعم ، تبغى هناك ، نشرته ليجف ، احضريه معك لو سمحت وطبعا لا تنسى كيسى ايضا .

– ساحضره يا فيدوت يفجرافيتش .

وبينما كانت اسيانينا تحضر الجنود طاف فاسكوف بجميع



الصخور زحفا على بطنه . وفحص وتنصت وشمشم كل شيء ، فلم يعثر للالمان على اثر فشعر بشيء من المرح . كانت كل حساباته تدل على ان ليزا بريتشكينا ستصل بعد قليل الى التحويلة فتبلغهم ، وعندئذ تلتف حول الالمان شبكة الحصار غير المرئية . وفى المساء – او فى الفجر على اقصى تقدير – سيصل المدد فيدلهم على مكان الالمان ، وعندئذ . . . وعندئذ سيسحب فتياته الى ما وراء الصخور . . . بعيدا حتى لا يسمعن السباب البذىء ، لان الامر لن يخلو من التحام بالسلاح الابيض .

ومن جديد احس بمجنداته وهن على البعد . لم تصدر عنهن فيما يبدو اصوات او جلبة ، ولم يتهامس ، ولكن القومندان ادرك تماما من على بعد كيلومتر انهن قادمات ، ربما لانهن كن يلهثن من شدة المثابرة ، او ربما لرائحة الكولونيا التى كانت تسبقهن . وكان فيدوت يفجرافيتش يشعر بفرح فى سريرته لانه ليس بين المخربين صياد حقيقى .

كان يحس برغبة ممضة فى التدخين ، لانه قضى ربما ثلاث ساعات فى الزحف على الصخور وفى الاحراش ، ولكى لا يستسلم للاغراء ترك كيس التبغ على حجر بجوار الفتيات . استقبلهن منبها الى التزام الصمت ، وسأل عن كيس التبغ ، فاشاحت اسيانينا بذراعيها :

– نسيت . . . نسيت يا عزيزى فيدوت يفجرافيتش . . .

فزمجر الشاويش : آه يا جنس الحريم الضعيف الذاكرة . . . عليك اللعنة . لو كان يتعامل مع رجل لما كان ابسط من ذلك : كان فاسكوف سيسبه باقذع ما فى جعبته من الفاظ ، ثم يرسله مرة اخرى لاحضار كيس التبغ . اما فى حالته هذه فقد اضطر الى الابتسام :

– حسنا ، لا بأس . ما زال هناك تبغ فى كيس حاجياتى ، الم تنسوه بالمناسبة .

كان الكيس معهن ، ولم يكن القومندان حزينا على التبغ بل على كيس التبغ ، لانه كان هدية ، وكان مكتوبا عليه بالتطريز : «الى حامى الوطن العزيز» . وقبل ان يتمكن من اخفاء حزنه انطلقت جورفيتش راكضة :

– ساحضره . . . انا اعرف موضعه ! . .

– الى اين يا مجندة جورفيتش ؟ . . يا مترجمة . . .

ولم تلتفت طبعا . . . لم يسمع الا طقطقة حذائها .

وكان حذاء سونيا جورفيتش يطقطق لانها لم تلبس من قبل ابدا حذاء طويلا ، ولعدم خبرتها بذلك تسلمت من مخزن المهمات حذاء اكبر بنمرتين من مقاسها . عندما يكون الحذاء مضبوطا على المقاس فانه لا يطقطق ، بل يدق الارض . . . وهذا الشيء يعرفه اى عسكرى محترف . ولكن عائلة سونيا كانت عائلة مدنية ، ولم يكن فيها من يحمل الاحذية الطويلة ، حتى ابو سونيا نفسه لم يكن يعرف كيف تلبس . . .

على باب منزلهم الصغير وراء نهر نيميجا علقت لوحة نحاسية كتب عليها : «**الدكتور فى الطب سلمون ارونوفيتش جورفيتش**» . ورغم ان اباها كان طبيبا عاديا ، وليس دكتورا فى الطب ، الا انهم لم ينزعوا اللوحة لانها كانت مهداة من جدهم الذى ثبتها بنفسه على الباب . وقد وضعها لان ابنه اصبح انسانا متعلما ومن ثم فلا بد ان يعرف ذلك سكان مدينة مينسك كلهم .

وكان على الباب ايضا مقبض الجرس ، الذى ينبغى جذبه مرات كثيرة حتى يدق الجرس . وتخلل هذا الرنين المنذر طفولة سونيا كلها ، ليلا ونهارا ، صيفا وشتاء . كان ابوها ياخذ حقيبته ، وينطلق مهما كان الجو ، سيرا على الاقدام لان اجرة العربة كانت غالية . وعندما يعود يحكى لهم عن حالات السل والتهاب اللوزتين والملاريا ، وكانت الجدة تسقيه خمرا منزليا من الكرز .

كانت اسرتهم متآلفة جدا وكبيرة العدد : الاولاد ، واولاد الاخوات ، والجدة ، والخالة التى لم تتزوج ، ثم احدى الاقارب ، فلم يكن فى المنزل فراش لا ينام عليه اثنان ، واحيانا ثلاثة .

وعندما كانت سونيا فى الجامعة كانت ترتدى فساتين حيكت من فساتين اخواتها القديمة . . . رمادية مغلقة كدروع الفرسان . وظلت طويلا لا تشعر بثقل هذه الفساتين ، لانها لم تكن تتردد على حلبة الرقص بل على المكتبة ، وعلى المسرح الفنى فى موسكو اذا تمكنت من تدبير بطاقة فى اعلى المسرح . ثم لاحظت ذلك عندما



ادركت ان جارها فى قاعة المحاضرات . . . ذلك الشاب ذا النظارة ، لم يكن يتردد معها على المكتبة صدفة . كان ذلك بعد عام ، فى الصيف . ثم بعد خمسة ايام من الامسية الوحيدة التى لا تنسى والتى قضياها فى حديقة جوركى اهدى لها جارها ذلك الديوان الصغير للشاعر بلوك ، ثم تطوع فى الجيش ورحل الى الجبهة .

نعم . . . حتى فى الجامعة كانت سونيا ترتدى الفساتين التى حيكت من فساتين اخواتها . فساتين طويلة ، ثقيلة ، كدروع الفرسان . . .

ولكنها لم تلبسها طويلا . . . عاما واحدا ، ثم لبست الزى العسكرى ، وحذاء اكبر من مقاسها بنمرتين .

لم يكن يعرفها احد فى الوحدة تقريبا لانها لم تكن ظاهرة ، كما كانت تنفذ كل ما يطلب منها . وقد انضمت الى المدفعية المضادة للطائرات بالصدفة . فقد كانت الجبهة فى وضع دفاعى راكد فحدث اكتفاء فى المترجمين ونقص فى جنود المدفعية المضادة للطائرات . ولذلك ارسلوها الى هنا مع جينكا كوميلكوفا بعد معركتين مع طائرات «المسرشميت» . وربما لهذا كان فاسكوف وحده هو الذى سمع صرختها :

– الظاهر جورفيتش صرخت ؟ . .

واصغوا جميعا . كان الصمت يلف السلسلة فلم يسمعوا شيئا سوى صفير الريح الخفيف .

قالت ريتا :

– كلا . . . لقد خيل لك . . .

ولم تتردد ثانية تلك الصرخة البعيدة الضعيفة كتنهيدة ، ولكن فاسكوف توتر وهو ينتصت ويتنصت ، واخذ وجهه يتصلب ببطء . هذه الصرخة الغريبة ، كانما انغرزت فى قلبه ، كانها ما زالت تتردد . وتثلجت اطراف فيدوت يفجرافيتش وقد بدأ يخمن ، بل ويدرك بالفعل ما وراء هذه الصرخة . نظر بعينين متحجرتين وقال بصوت غير صوته :

– كوميلكوفا ، اتبعينى . الباقى ينتظر هنا .

وانسل فاسكوف فى المقدمة كظل ، وركضت خلفه كوميلكوفا

وهى تلهث ولا تكاد تلحق به . صحيح ان فاسكوف كان خفيفا ، اما هى فكانت تحمل البندقية وترتدى هذه الجونلة التى كانت تبدو دائما اثناء الجرى اضيق مما ينبغى . اما الشىء المهم فهو انها كانت تبذل كل ما فى وسعها لتعدو دون جلبة ، حتى لم يعد لديها طاقة لكل ما عدا ذلك .

اما الشاويش فكان متحفزا مشدودا الى تلك الصرخة . . . لقد عرف وفهم تلك الصرخة الوحيدة التى ندت بدون صوت تقريبا والتقطها هو فجاة . كان قد سمع صرخات مثلها ، صرخات تبدد كل شىء وتذيبه فلا يبقى غير الرنين . . . رنين داخلى ، فى قلبك ، وهذا الرنين الاخير لن تنساه ما حييت . كانما يتجمد ، فيثلج اطرافك ويعصر قلبك ، ولهذا كان القومندان ينطلق الآن بهذه السرعة .

ولهذا ايضا توقف كانما اصطدم بجدار ، توقف فجاة فانغرزت ماسورة بندقية جينكا فى ظهره . لكنه لم يلتفت ، بل جلس على الارض ووضع يده عليها بجوار اثر هناك .

كان اثرا كبيرا بخطوط بارزة .

وهمست جينكا بفحيح لافح :

– الالمان ؟ . .

ولم يرد الشاويش . كان يتفحص ويصغى ويشمشم ، وضم قبضته بشدة حتى ابيضت عظامها . وتطلعت جينكا الى الامام : على الاحجار المتناثرة لاحت بقع داكنة . ورفع فاسكوف احد الاحجار بحذر فانزلقت عليه نقطة سوداء سميكة . وارتد راس جينكا الى الوراء وارادت ان تصرخ فاحتبست الصرخة فى حلقها .

وقال الشاويش بصوت خافت :

– بلا اتقان . . . – ثم كرر – بلا اتقان . . .

ووضع الحجر فى موضعه بحرص وتلفت وهو يحدد : مَنْ والى اين سار ، ومَنْ واين كان يقف . ثم خطا الى ما وراء الصخرة .

كانت جورفيتش راقدة فى الفجوة منكمشة ، ومن تحت جونلتها المحروقة اطل الحذاء المشمع الخشن . ورفعها فاسكوف من حزامها قليلا ليضع ذراعيه تحت ابطيها ، ثم سحبها ومددها على ظهرها .



اطلت من عينى سونيا نصف المغلقتين نظرة خابية الى السماء ، وكانت سترتها ملوثة بدم غزير عند الصدر . وفك فيدوت يفجرافيتش ازرارها بحذر والصق اذنه بصدرها . وظل يتنصت فترة طويلة ، بينما كانت جينكا تختلج خلفه دون صوت وهى تعض قبضتيها . ثم استقام وازاح من على صدر سونيا العذرى قميصها المشبع بالدم اللزج فظهرت فيه فتحتان ضيقتان . كانت احداهما فى ثديها الايسر ، والثانية اسفل قليلا . . . فى القلب .

وزفر الشاويش وقال :

– لهذا صرخت . . . استطعت ان تصرخى . . . لان طعنته كانت موجهة لرجل . لم تصل سكينه الى قلبك من الطعنة الاولى . . . منعها صدرك . . .

واغلق الياقة ، وزرر الازرار كلها ، وطوى ذراعيها واراد ان يغلق عينيها فلم يستطع . وهكذا لوث جفنيها بالدم بلا طائل . ثم نهض :

– نامى هنا قليلا يا سونيا .

وشهقت جينكا خلفه وهى تختلج فرماها الشاويش بنظرة رصاصية من تحت حاجبيه وقال :

– لا وقت لدينا للبكاء يا كوميلكوفا .

وانحنى واندفع بسرعة الى الامام ، وهو يخمن بقوة الحدس اتجاه الآثار الخفيفة ذات الخطوط البارزة . . .

## ٩

هل كان الالمان متربصين لسونيا ام انها عثرت بهم مصادفة ؟ كانت تجرى دون حذر فى الطريق الذى قطعته مرتين ، تجرى على عجل لتحضر له هو ، الشاويش فاسكوف هذا التبغ الملعون . كانت تجرى فرحانة ، ولم تتمكن حتى من ان تدرك من اين انقض على كتفيها الضعيفتين ذلك الجسد الثقيل المبلل بالعرق ، ولماذا تمزق قلبها فجاة بالم حاد خارق . . . كلا ، بل تمكنت ، تمكنت من ان تدرك ، وان تصرخ ، لان السكين لم تصل الى قلبها من الضربة الاولى . . . منعها صدرها . وكان صدرها عاليا ، مشدودا .

ولكن ، اليس من الجائز ان ذلك قد حدث بصورة مختلفة ؟ ربما كانوا متربصين لها ؟ هل يكون المخربون قد مكروا بفتياته الغريرات ، وبه ايضا ، هو الشاويش المحترف الحاصل على وسام لقاء عمليات الاستطلاع ؟ اليس من الجائز انهم هم الذين يطاردونه لا هو الذى يطاردهم ؟ ايكونون قد اكتشفوا كل شىء ، واحصوهم ووزعوا فيما بينهم الواجبات : من سيقتل من ، ومتى ؟

لم يكن الخوف ، بل الغضب العارم ، هو ما يحث فاسكوف الان . وكان يصر على اسنانه من هذا الغضب الاسود الذى يعشى البصر . كان يبغى شيئا واحدا : ان يلحق بالالمان . . . ان يلحق بهم وهناك نتدبر الامر . . .

– لن تفوزوا حتى بصرخة . . . لا ، لن امكنكم منها . . .

كانت الآثار الضعيفة لا تزال تلوح هنا وهناك فوق الاحجار ، فتيقن فيدوت يفجرافيتش تماما من ان الالمان كانوا اثنين . وعاد من جديد يؤنب نفسه ويتعذب ، ولم يستطع ان يغفر لها ابدا انه لم يراقب الالمان جيدا ، وانه اعتمد على انهم يتجولون فى الجانب الآخر وليس هنا فتسبب فى مصرع مترجمته ، التى شاركها بالامس فقط قدر الطعام . وكان العذاب يصرخ فى داخله ويتلوى ، ولم يكن هناك ما يهدئه الآن سوى المطاردة . ولم يستطع ان يفكر فى اى شىء آخر ، حتى جينكا لم يكن يلتفت ليطمئن عليها .

وكانت جينكا تعلم الى اين يذهبان ولماذا . ادركت ذلك رغم ان الشاويش لم يقل لها شيئا . ولم تحس باى خوف . اندملت جراح نفسها كما يتجلط الدم ، كما لو كانت هذه الجراح تنتظر فرصة للتفجر ، بينما جينكا لا تمكنها من ذلك . ولهذا لم يشتت ذهنها شىء . لقد خبرت ذلك من قبل عندما خباتها المرأة الاستونية فى دارها . كان ذلك فى صيف عام ٤١ ، اى منذ عام تقريبا . . .

رفع فاسكوف يده فتوقفت على الفور وهى تكتم لهاثها بكل ما لديها من قوة .

وقال فيدوت يفجرافيتش بصوت لا يكاد يسمع :

– تمالكى نفسك . انهم فى مكان ما هنا . . . قريبون منا .



وتحاملت جينكا على البندقية بقوة وفكت زرار ياقتها بعنف . كانت تريد ان تتنفس بصخب ، بملء صدرها ، ولكنها كانت مضطرة لان تمتص الهواء وكانما تمرره من خلال غربال ، ولذلك ظل قلبها طويلا لا يريد ان يهدأ . وقال الشاويش :

– هاهم .

كان ينظر من خلال شق ضيق بين الصخور . ونظرت جينكا : كانت رؤوس الشجيرات الصغيرة تهتز قليلا فى حرش البتولا الذى يمتد بينهم وبين الغابة .

ومضى الشاويش يقول دون ان يلتفت :

– سيمرون بجوارنا . ابقى هنا . وعندما اصيح كالبطة اصنعى ضجة . القى حجرا ، او دقى بكعب البندقية لكى يلتفتوا اليك . ثم اصمتى ثانية . هل فهمت ؟

فقالت جينكا :

– فهمت .

– عندما اصيح ، لا قبل ذلك .

واستنشق بعمق وقوة وقفز من فوق الصخرة الى الحرش قاطعا عليهم الطريق .

اهم شىء ان يتمكن من الوثوب عليهم من جهة الشمس حتى تعشى ابصارهم . والشىء المهم الثانى ان يقفز على الظهر . . . ان ينقض عليهم فيطرحهم ويطعنهم قبل ان تند عنهم صرخة . . . لا حس ولا خبر . . .

واختار مكانا طيبا ، لا يمكن ان يتجنبه الالمان ولا يمكن ان يلاحظوه . وكانوا هم مكشوفين امام مخبئه ، فقد كانت مقابله فرجة فى الحرش . طبعا كان يمكنه ان يطلق النار بكل هدوء ودون ان يخطىء الهدف ، ولكنه لم يكن على يقين من ان صوت الطلقات لن يصل الى سمع المجموعة الرئيسية ، ولم يكن من صالحه ان يثير الآن ضجة . ولذلك دس المسدس فى قرابه ثانية ، وزرر الزرار حتى لا يسقط المسدس صدفة ، واختبر مدى انسياب الخنجر الفنلندى الغنيمة فى غمده .

وفى هذه اللحظة ظهر الالمان لاول مرة مكشوفين فى حرش البتولا ذى الاشجار القليلة باوراقها الربيعية التى لم تزل بعد خفيفة كنسيج

الدانتلا . كانوا اثنين ، كما توقع فيدوت يفجرافيتش ، وفى المقدمة سار شاب فارع ، حاملا رشاشا على كتفه . كانت الفرصة مناسبة جدا لاصطيادهما بالمسدس ، ولكن الشاويش استبعد هذه الفكرة ثانية ، ولم يكن ذلك خوفا من سماع الطلقات ، وانما لانه تذكر سونيا فلم يسمح لنفسه ان يقتص قصاصا سهلا . العين بالعين

والطعنة بالطعنة . . . بهذا الشكل توضع المسالة الآن . . . وبهذا الشكل فقط !

كان الالمانيان يسيران بحرية ودون حذر ، حتى ان جنـــدى المؤخرة كان يقضم قطعة من البسكويت ويتلمظ بشفتيه . وحدد الشاويش طول خطوتهما وحسب وقدر متى سيحاذيانه ، فاستل الخنجر ، وعندما اصبح اولهما على مسافة قفزة ، صاح صيحتين قصيرتين سريعتين كالبطة ، فرفع الالمانيان رأسيهما مرة واحدة ، وهنا ضربت كوميلكوفا خلفهما كعب البندقية بالصخرة ، فاستدارا بسرعة الى مصدر الضجة ، ووثب فاسكوف . . .

كان قد قدّر الوثبة تقديرا دقيقا ، واختار اللحظة المناسبـــة

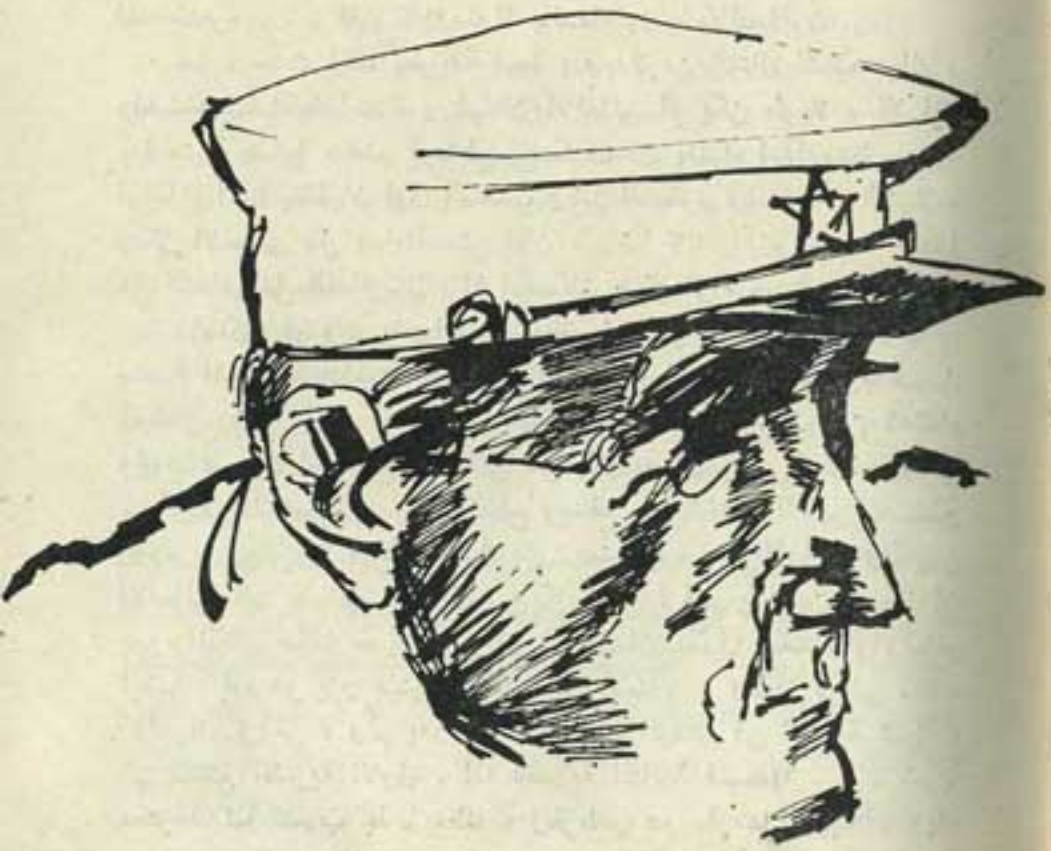

بدقة ، وقاس المسافة بالضبط . وانقض على ظهر الالمانى واطبق بركبتيه على كوعيه . ولم يتمكن ذلك الالمانى من ان يلتقط انفاسه او ينتفض حين قبض فاسكوف على جبينه بيده اليسرى وجذب رأسه الى الخلف وشق بالنصل المرهف الزور المشدود .

هكذا قدر فاسكوف بالضبط . . . ان يذبحه كما تذبح الخراف ، حتى لا تند عنه صرخة ، ولا يسمع شخير الدماء النازفة فقط . وعندما بدأ الالمانى يتهاوى ، قفز القومندان من فوقه وهرع نحو الثانى .

مرت لحظة واحدة لا غير ، وكان الالمانى الآخر ما يزال موليا ظهره لفاسكوف وقد بدأ يستدير . ولكن فاسكوف لم يستطع ان يطعنه بالخنجر ، اما لان قواه لم تكن كافية لقفزة اخرى ، او انه تلكأ قليلا . ضربه فاطار من يده الرشاش ولكنه فى نفس الوقت فقد خنجره . . . فقد كان ملوثا بالدماء وزلقا كالصابون .

نعم ، حدث ذلك بطريقة غبية ، وبدلا من القتال نشب عراك ، واستخدمت القبضات . ورغم ان الالمانى لم يكن طويلا ، الا انه بدا متينا صلبا ، فلم يستطع فاسكوف ان يثنيه ابدا ويطرحه ارضا . اخذا يتقلبان فوق الطحلب وبين الصخور وشجيرات البتولا ، ولكن الالمانى ظل صامتا حتى الآن ، ربما لانه اعتبر نفسه قادرا على التغلب على الشاويش ، او انه كان يدخر قواه .

وارتكب فيدوت يفجرافيتش خطأ آخر : اراد ان يمسك الالمانى مسكة مضبوطة فافلت هذا منه واستطاع ان يستل خنجره من غمده . وكم خاف فاسكوف هذا الخنجر ، وكم اولاه من اهتمام وجهد ، حتى استطاع الالمانى فى النهاية ان يجثم فوقه ويعصره بساقيه الضخمتين ، واخذ يدفع ويدفع حد الخنجر الكابى نحو زوره . وحتى الآن كان الشاويش يمنع يده ، ويقاوم ، ولكن الالمانى كان يضغط من فوق ، وبكل ثقله ، فلم يكن من الممكن ان يدوم الحال هكذا طويلا . وكان القومندان يدرك ذلك ، والالمانى ايضا ، فها هو يزر عينيه ويكشر عن اسنانه . وفجأة تراخى . . . كالجوال تراخى ، ولم يدرك فيدوت يفجرافيتش فى البداية شيئا ، لم يسمع الضربة الاولى . اما الضربة الثانية فسمعها . . . ضربة مكتومة كما تضرب جذعا عطنا . وطرطش دم حار على وجهه ، وبدأ



الالمانى ينهار وهو يلقف الهواء بفم معوج . وطرحه الشاويش وانتزع من يده الخنجر وطعنه طعنة قصيرة فى القلب .

وعند ذلك فقط التفت . . . كانت المجندة كوميلكوفا واقفة امامه ، ممسكة بالبندقية من ماسورتها كانها هراوة . وكان كعب البندقية ملوثا بالدم .

وقال الشاويش على ثلاث مراحل :

– برافو يا كوميلكوفا . . . اوجه اليك . . . الشكر . . .

واراد ان ينهض فلم يستطع . وهكذا ظل جالسا على الارض يلقف الهواء كالسمكة ، ويتطلع فقط الى الالمانى الاول . . . كان قويا كالثور . ما زالت ساقاه ترتعشان ، وما زال يشخر والدم يتدفق من زوره . اما الثانى فكان قد خمد . . . انكمش قبل ان يموت وسكن على هذا الوضع . وانتهى امره .

وقال فاسكوف بصوت خافت :

– هكذا يا جينيا . . . اذن نقص عددهم اثنين . . .

وفجأة القت جينكا البندقية ، وانحنت ومضت نحو الخميلة وهى تترنح كالثملة . وانهارت هناك على ركبتيها ، فقد دهمتها نوبة غثيان ، واخذت تشهق بالبكاء وهى تنادى شخصا ما . . . امها فيما يبدو . . .

ونهض الشاويش . كانت ركبتاه لا تزالان ترتعشان وفم المعدة يخفق ، لكنه اصبح من الخطر تضييع الوقت . ولم يحاول ان ينهر كوميلكوفا الآن ان يناديها ، فقد كان يعرف بتجربته ان اول التحام بالسلاح الابيض يزعزع كيان الانسان دائما ، وهو يدوس فوق القانون الطبيعى كالحياة نفسها ، قانون «لا تقتل» . ولابد للمرء ان يعتاد ذلك ، لابد ان يقسو قلبه . وكم من جنود رجال اشداء ، لا نساء مثل كوميلكوفا ، عانوا وتعذبوا كثيرا قبل ان يطوعوا ضمائرهم وقلوبهم ويكيفوها مع الوضع الجديد . انها امراة ، امراة تضطر الى ضرب راس رجل حى بكعب البندقية ، امراة ستصبح اما فى المستقبل وقد زرعت فيها الطبيعة كراهية القتل . واسرها فيدوت يفجرافيتش فى نفسه للالمان ، لانهم داسوا على القوانين الانسانية فاصبحوا بذلك خارج اى قانون . ولذلك فلم يشعر سوى بالتقزز وهو

يفتش الاجساد التى لم تبرد بعد . . . التقزز فقط . . . وكانه يقلب جيفا نتنة . . .

ووجد ما كان يبحث عنه ، فى جيب ذلك الطويل الذى فارق الحياة لتوه بعد ان كف عن الشخير . وجد كيس تبغه . كيسه الخاص ، المهدى اليه هو الشاويش فاسكوف ، وعليه الجملة المطرزة : «**الى حامى الوطن العزيز**» . واطبق عليه فى قبضته وعصره : آه . . لم تتمكن سونيا من احضاره اليه . . . وركل بقدمه اليد المشعرة التى كانت ممدودة فى طريقه ، واقترب من جينكا . كانت لا تزال جاثية على ركبتيها فى الخميلة وهى تغص وتشهق .

قالت له :

– ابتعد عنى . . .

فقرب من وجهها قبضته المضمومة ثم فتحها ليريها كيس التبغ . وعلى الفور رفعت جينكا راسها . . . عرفت الكيس .

– قومى يا جينكا .

وساعدها على النهوض ، واراد ان يعود بها الى المكان السابق ، لكنها لم تتقدم سوى خطوة واحدة ثم توقفت وهزت راسها بشدة .

فقال الشاويش :

– كفاية . . . بكيت وكفاية . يجب ان تفهمى شيئا مهما . . . هؤلاء ليسوا بشرا يا جينكا ، ليسوا بشرا ، ولا حتى وحوشا . . . بل فاشست . انظرى اليهم على هذا الاساس .

ولكن جينكا لم تستطع ان تنظر على اى نحو ، فلم يصر فيدوت يفجرافيتش على رايه . واخذ الرشاشين والخزانات الاضافية ، واراد ان ياخذ ايضا الزمزميتين ولكنه تطلع الى كوميلكوفا بشك وعدل عن ذلك : فلتذهبا الى الشيطان . . . ليس فيهما مكسب كبير ، وبالنسبة لجينكا فهذا افضل ، لا داعى لمزيد من الاشياء التى تذكرها بالحادثة .

ولم يحاول فاسكوف ان يخبئ الجثتين ، فلن يستطيع على اى حال ان ينظف المكان من الدماء . وعموما فلا معنى لذلك ، فالظلام على وشك الهبوط ، وعما قريب ينبغى ان يصل المدد . لم يبق امام الالمان سوى فترة قصيرة ، وقد اراد الشاويش ان يقضوا هذه الفترة فى قلق . نعم ، دعهم يتعذبون وهم يخمنون من الذى قضى على



دوريتهم ، دعهم ينتفضون فزعا لدى كل حفيف او ظل .

واغتسل الشاويش فى اول نقرة صادفها (كانت النقر هنا اكثر من النمش على وجه فتاة نمشاء) ، وثبت ياقته الممزقة على سترته كيفما اتفق وقال :

– الا تريدين ان تغتسلى ؟

فهزت راسها نفيا . كلا ، لن تستطيع الآن ان تجرها الى الحديث او تصرفها عن التفكير . . . وتنهد الشاويش وسالها :

– هل اوصلك ام تعرفين الطريق وحدك ؟

– اعرف .

– اذهبى ، ثم تعالوا حيث سونيا . . . هناك يعنى . . . ربما كنت خائفة من الذهاب وحدك ؟

– لا .

– كونى على حذر اثناء السير . . . انت فاهمة ؟

– فاهمة .

– طيب ، امشى . لا تتاخروا هناك . . . اجلوا الحزن لوقت آخر .

وافترقا . ونظر فيدوت يفجرافيتش فى اثرها حتى اختفت عن ناظريه . . . لم تعجبه طريقة سيرها . كانت تصغى الى داخلها لا الى العدو . . . ايه ، ياللمقاتلات ! . .

كانت تطل من عينى سونيا نصف المغمضتين نظرة خابية الى السماء وحاول الشاويش مرة ثانية ان يغلقهما ففشل من جديد . وعندئذ فك ازرار جيوب سترتها واخرج منها بطاقة عضوية الكومسومول ، وشهادة تخرج من صفوف المترجمين ورسالتين وصورة . وكان فى تلك الصورة كثير من المدنيين ، ولم يستطع فاسكوف ان يتبين الاشخاص فى وسطها ، ففى هذا الموضع تمزقت الصورة من طعنة الخنجر . ولكنه وجد سونيا . . . كانت فى جانب الصورة ، ترتدى فستانا بكم طويل وياقة واسعة ، وكانت رقبتها النحيلة بارزة من تلك الياقة كانها تبرز من نير . وتذكر حديثهما بالامس وحزنها ، وفكر بمرارة فى انه ليس هناك حتى من يكتب له عن استشهاد المجندة صوفيا سلمونوفنا جورفيتش البطولى . ثم بلل

الشاويش منديلها بلعابه ومسح الدم من جفونها الباردة ثم غطى وجهها بنفس المنديل . اما الوثائق فوضعها فى جيبه الايسر ، بجوار بطاقته الحزبية . وجلس بالقرب واشعل لفافة من كيس التبغ اللعين .

لم يأسف لقتله الدورية كاشفا بذلك نفسه . فالزمن يعمل الآن لصالحه ، والتبليغات عن هؤلاء المخربين تسير الآن فى جميع الخطوط ، والجنود فى الغالب قد تلقوا التعليمات حول كيفية القضاء على الالمان باسهل طريقة . حسنا ، بقيت امامه ثلاث ساعات ، قل حتى خمس ، ليقاتل خلالها اربعتهم ضد اربعة عشر ، وهذا امر من الممكن احتماله ، خاصة وانهم قد صرفوا الالمان عن اتجاههم المستقيم وجعلوهم يدورون حول بحيرة ليجونتوفو ، وهذا يعنى يوما كاملا من السير .

جاءت جماعته ومعها كل الممتلكات ، فقد تبقت حاجيات المجندتين اللتين رحلتا . . . وان كانت كل منهما قد رحلت فى اتجاه مختلف . وهكذا بدأت الحاجيات تتكاثر لدى الجماعة كما يحدث فى الاسر المدبرة . وعندما رأت جالا تشيتفرتاك سونيا صرخت واخذ بدنها يرتجف ، ولكن اسيانينا صاحت فيها بغضب :

– كفاك هستيريا ! . .

فصمتت جالا ، وجثت على ركبتيها بجوار راس سونيا وهى تبكى فى صمت . اما ريتا فكانت تزفر بحسرة ، ولكن عينيها كانتا خاليتين من الدموع .

وقال الشاويش :

– هيا ، جهزوها .

وتناول الفأس (آه ، لقد نسى ان يحضر معه المجرفة لمثل هذا الظرف !) وذهب يبحث عن مكان للقبر بين الصخور . وبحث وفتش ، ولكن المكان كله مغطى بالصخور ، لا يمكن الحفر فيه . ثم وجد هناك حفرة ، فقطع بعض الاغصان وفرشها فى قاع الحفرة ثم عاد .

وقالت اسيانينا :

– كانت متفوقة . فى جميع المواد . فى المدرسة وفى الجامعة .

ردد الشاويش :



– نعم . كانت تقرأ شعرا .

وفى نفسه قال : ليس هذا هو المهم ، وانما المهم ان سونيا كانت تستطيع ان تنجب كثيرا من الاولاد ، وينجب هؤلاء احفادا واحفاد احفاد . اما الآن فلم يعد هذا الخيط موجودا ، هذا الخيط الصغير فى غزل البشرية اللانهائى ، الخيط الذى قطعه الخنجر . . .

وقال :

– ارفعوا . . .

ورفعتها كوميلكوفا واسيانينا من الكتفين ، وتشيتفرتاك من قدميها . وحملنها وهن يترنحن ويتعثرن ، وكانت قدم تشيتفرتاك تحتلك بالارض . . . قدمها ذات المداس الذى صنعه لها . وكان فاسكوف يسير خلفهن حاملا معطف سونيا .

وعندما بلغوا الحفرة قال :

– قفوا . . . ضعوها هنا الآن .

فوضعوها على حافة الحفرة ، ولم تستقر راسها ومالت جانبا ، فوضعت كوميلكوفا العمرة تحتها . اما فيدوت يفجرافيتش ففكر قليلا وهو مكفهر الوجه (لم يكن يريد ان يفعل ما هو مقدم عليه ، لم يكن يريد ان يفعل ذلك ابدا !) ثم دمدم لاسيانينا دون ان يتطلع اليها :

– امسكى رجليها .

– لماذا ؟

– امسكى ما دمت امرتك ! ليس من هنا . . . من ركبتها ! . . – ونزع من قدم سونيا فردة الحذاء .

فصرخت اسيانينا :

– لماذا ؟ . . اياك ان تجرؤ ! . .

– افعل ذلك لان المجندة تشيتفرتاك تسير حافية . . .

فصرخت تشيتفرتاك وهى ترتجف :

– لا ، لا ، لا ! . .

فتنهد الشاويش وقال :

– نحن لا نلعب كالصغار يا بنات . . . لابد ان نفكر فى الاحياء . . . هذا هو قانون الحرب . امسكى يا اسيانينا . اننى آمرك .

ونزع الفردة الثانية ، ثم القى بالحذاء الى جالا تشيتفرتاك :

– البسى . . . هيا ، بلا انفعال ، فالالمان لن ينتظرونا .

ثم هبط الى الحفرة وتلقى على يديه جسد سونيا ، ثم لفه بالمعطف ومدده ، واخذ يغطيه بالحصى الذى كانت تناوله له الفتيات . كانوا يعملون فى صمت وبسرعة . وبرز القبر فوق الارض ، فوضع الشاويش عمرتها فوقه وثبتها بحجر . اما كوميلكوفا فوضعت غصن شجرة .

وقال فاسكوف :

– سنعلم المكان على الخريطة . وبعد الحرب نضع تمثالا .

واهتدى الى المكان فى الخريطة ووضع علامة صليب . ونظر اليهن فراى تشيتفرتاك ما زالت ترتدى المداس القديم .

– ماذا هناك يا مجندة تشيتفرتاك ؟ لماذا لم تلبسى الحذاء ؟

فارتجفت تشيتفرتاك وصرخت :

– لا ! لا . . لا . . لا . . لا يمكن ! هذا مضر ! امى طبيبة وتعرف . . .

فصاحت اسيانينا فجأة :

– كفى كذبا . . . كفى ! ليس لديك ام ! ولم يكن ! انت لقيطة ! كفاك اختلاقا ! . .

فبكت جالا . بكت بمرارة وحرقة ، كطفل كسروا لعبته . . .

## ١٠

قالت جينكا بعتاب وهى تعانق تشيتفرتاك :

– ما الداعى لهذا ؟ لماذا ؟ لا داعى لهذا الغل والا اصبحنا متوحشين كالالمان . . .

ولزمت اسيانينا الصمت . . .

كانت جالا لقيطة بالفعل . . . حتى اسم العائلة اختاروه لها فى ملجأ الايتام . سموها تشيتفرتاك ، لانها كانت اقصر الاطفال قامة ، اقصرهم بمقدار الربع * .

* كلمة تشيتفرتاك مشتقة من الكلمة الروسية «تشيتفيرت» اى : ربع . المترجم .



وكان الملجأ يحتل مبنى دير سابق . وكان سوس الخشب السمين الرمادى يتساقط من جدران اقبيته المدوية . وكانت الوجوه ذات اللحى الكثة والتى لم يفلح الطلاء فى اخفائها ، تطل من جدران الكنائس العديدة التى حولت على عجل الى ورش للخدمات العامة ، وكانت صوامع الرهبان باردة كالاقبية .

وفى العاشرة من عمرها اصبحت جالا مشهورة بعد ان اثارت ضجة لم يشهد لها الدير مثيلا منذ انشائه . فعندما كانت ذاهبة ليلا لقضاء حاجة ايقظت الملجأ كله بصرخة رعب هائلة . وهب المربون من فراشهم فعثروا عليها جالسة على الارض فى طرقة شبه مظلمة . وحكت لهم جالا ببراعة كيف ان عجوزا بلحية حاول ان يخطفها ويهبط بها الى القبو .

وفتح ملف «قضية اعتداء . . .» ، وزاد من تعقيدها انه لم يكن هناك شخص ذو لحية فى الناحية كلها . وجاء المحققون فسألوها بصبر ، ولم يخل الامر من ادعياء شرلوك هولمز المحليين . وتنقلت الحادثة من لسان الى لسان وهى تكتسب مزيدا من التفاصيل الجديدة . ولم يستطع احد ان يتوصل الى ان ذلك محض اختلاق سوى رئيس المخزن العجوز الذى كانت جالا على صلة ودية به لانه هو الذى ابتكر لها اسم عائلتها الرنان .

لقد ظلوا مدة طويلة يعيرونها ويحتقرونها ، فما كان منها الا ان الفت حكاية . صحيح ان هذه الحكاية كانت تشبه الى حد كبير حكاية «عقلة الصباع» ، ولكن اولا : كان البطل هنا طفلة لا طفلا ، وثانيا : شارك فى الحوادث شيوخ ذوو لحى ، واقبية مظلمة .

وانتهت شهرتها عندما مل الجميع هذه الحكاية . ولم تحاول جالا ان تؤلف حكاية اخرى ، ولكن بدأت تروج فى الملجأ شائعات عن كنوز خباها الرهبان . وانتشر البحث عن الكنوز بين اطفال الملجأ كالوباء ، فتحول فناء الدير فى فترة وجيزة الى حفر وتلال من الرمال . وما ان تمكن الرؤساء من معالجة هذه الكارثة حتى بدأت الاشباح ذات الاردية البيضاء الهفهافة تطل من الاقبية . وشاهد الكثيرون هذه الاشباح ، ورفض الاطفال الصغار رفضا قاطعا الخروج ليلا لقضاء الحاجة ، مع كل ما يترتب عن ذلك الرفض من آثار . واصبح الامر يهدد بكارثة . فاضطر المربون الى القيام بمطاردة سرية للاشباح .

وكان اول شبح يقبض عليه متلبسا ، وفى ملاءة الملجأ هو جالا تشيتفرتاك .

وبعد ذلك سكنت جالا ، واخذت تدرس باجتهاد وتساعد فى رغاية الاطفال الصغار ، بل حتى وافقت على الغناء فى الكورس رغم انها كانت تحلم طول عمرها بالادوار الفردية والفساتين الطويلة والاعجاب الشامل بها . وهنا داهمها الحب الاول ، ولما كانت قد تعودت ان تحيط كل شىء بالغموض ، فسرعان ما غرق الملجأ فى طوفان من الرسائل والقصاصات المكتوبة والدموع والمواعيد . ومرة اخرى نزل العقاب بالمتسببة فى كل ذلك ، وسارع الرؤساء الى التخلص منها فارسلوها للدراسة فى معهد المكتبات المتوسط مع منحة شهرية مرتفعة .

وعندما بدات الحرب كانت جالا فى الصف الثالث ، وفى اول ايام الاثنين ذهبت مجموعتها بكامل افرادها الى اللجنة العسكرية للتطوع . وقبلوا المجموعة كلها ما عدا جالا ، لانها لم تكن لائقة عسكريا ، لا من حيث الطول ولا من حيث السن . ولكنها لم تستسلم واخذت تشن هجوما عنيفا على رئيس اللجنة وتكذب دون حياء حتى اربكت العقيد المخبول من طول السهر فارسلها بصورة استثنائية الى المدفعية المضادة للطائرات .

عندما يتحقق الامل يفقد دائما هالته الرومانسية ، وقد اتضح لها ان العالم الواقعى عالم قاس صارم لا يتطلب اقداما بطوليا بل تنفيذا دقيقا للوائح العسكرية . وسرعان ما تبخر طعم الجدة ، ولم تكن الحياة اليومية تتفق ابدا وتصورات جالا عن الجبهة . احست بالضياع وفترت همتها وصارت تبكى خفية اثناء الليل . وهنا ظهرت جينكا فعاد العالم الى ايقاعه السريع المرح .

لم تكن جالا ببساطة تستطيع ان تمتنع عن الكذب . ولم يكن ذلك فى الواقع كذبا ، بل احلاما ترتدى ثوب الواقع . ومن ثم فقد ظهرت لها ام ، طبيبة ، وكادت جالا نفسها تقريبا تؤمن انها موجودة . . .

لقد ضيعوا وقتا كثيرا فاصبح فاسكوف قلقا للغاية . كان من المهم ان ينصرفوا من هنا بسرعة ويكتشفوا مكان الالمان ، ثم يتعلقون بذيلهم ، وبعدها فليكتشف الالمان دوريتهم المقتولة . لا



يهم ، فساعتها سيكون الشاويش متمكنا منهم وليس العكس . سيتهددهم ، ويناوشهم موجها اياهم الوجهة التى يريدها و . . . ينتظر . . . ينتظر حتى يصل المدد ويبدأ الحصار .

ولكنهم تباطأوا . . . دفنوا سونيا وطيبوا خاطر تشيتفرتاك ، بينما كان الوقت يمضى . واثناء ذلك اختبر فيدوت يفجرافيتش الرشاشين ، وخبأ البنادق الزائدة – بندقيتى بريتشكينا وجورفيتش – فى مكان امين ، ووزع الطلقات بالتساوى ، ثم سأل اسيانينا :

– هل استخدمت الرشاش من قبل ؟

– رشاشاتنا فقط .

– حسنا ، خذى هذا الالمانى . . . اعتقد انك ستجيدين استخدامه . . . – ووضح لها كيف تستخدمه وحذرها : – لا تطلقى دفعات طويلة فهو يشد الى اعلى . . دفعات قصيرة فقط .

اخيرا تحركوا . . . الحمد لله . . . وسار فى المقدمة ، ومن خلفه تشيتفرتاك وكوميلكوفا . . . النواة الاساسية . . . ثم فى المؤخرة اسيانينا . سرن بحذر ، بلا ضجيج ، ومع ذلك يبدو انهن كن يصغين الى ما بداخلهن اكثر من اصغائهن للعدو ، لانهن تفادين الالمان باعجوبة . تماما كما فى الحكايات .

من حسن حظهم ان الشاويش هو الذى راى الالمان اولا . ما ان ظهر من وراء الصخرة حتى راى اثنين يتجهان نحوه مباشرة ومن خلفهما البقية . ولو ان فيدوت يفجرافيتش تأخر سبع خطوات فقط ، لانتهت عند هذا الحد خدمتهم العسكرية . بدفعتين جيدتين من الرشاش كانت ستنتهى .

ولكنه قام من جانبه بهذه الخطوات السبع ، ولذلك حدث كل شىء بالعكس . استطاع ان يقفز الى الوراء ، ويشير للبنات بيده ليتفرقن ، ويخرج القنبلة اليدوية من جيبه . ومن حسن الحظ ان الكبسولة كانت مركبة فيها . فالقى بالقنبلة من وراء الصخرة ، وعندما انفجرت فتح نيران رشاشه .

فى اللوائح العسكرية يسمى هذا القتال قتالا عرضيا . ومن مميزاته ان العدو لا يعرف قوتك ، لا يعرف هل انت جماعة استطلاع ام دورية امامية . ولذلك فالمهم هنا ألا تدعه يفيق من المفاجأة .

ومن المفهوم طبعا ان فيدوت يفجرافيتش لم يكن يفكر فى ذلك ، فهو شىء محفور فى ذهنه ، محفور الى الابد ، ولذلك فقد فكر فقط فى انه ينبغى عليه ان يطلق النار . وفكر ايضا فى جنوده اين هم : هل اختباوا وانبطحوا ام هربوا .

كان الدوى يصم الآذان ، لان الالمان وجهوا النار الى صخرته من جميع رشاشاتهم العاملة . وطارت شظية صخرية فجرحت وجهه وامتلأت عيناه بالغبار ، فكان لا يرى شيئا تقريبا اذ انسابت الدموع من عينيه بغزارة . ولم تكن هناك فرصة ليمسحها .

ورن ترباس رشاشه وارتد الى الخلف . . . نفدت الطلقات . كم كان فاسكوف يخشى هذه اللحظة . كان تعمير الرشاش يتطلب عدة ثوان ، ولكن الحياة الآن تقاس بهذه الثوانى . سيندفع الالمان نحو الرشاش الصامت ، ويعبرون الامتار العشرة التى تفصله عنهم ، وعندئذ . . . خلاص . . . النهاية .

ولكن المخربين لم يندفعوا . . . بل لم يرفعوا حتى رؤوسهم ، لان الرشاش الآخر ، رشاش اسيانينا الصقهم بالارض . كانت تضرب بدفعات قصيرة ، وبتسديد ومباشرة ، فاتاحت للشاويش

الثانية المنشودة . تلك الثانية التى على المرء فى مقابلها ان يقدم الفودكا حتى آخر العمر .

لم يذكر احد فيما بعد كم استمر هذا القتال . ولو قيس بالزمن العادى لكان قتالا سريعا ، كما ينبغى للقتال العرضى ان يكون حسب اللوائح . لكنه لو قيس بالانفعالات ، وبالقوة المبذولة ، وبالتوتر ، وبالخطر لاحتل شريحة كاملة من العمر ، او ربما احتل الحياة كلها بالنسبة للبعض .

واصيبت جالا تشيتفرتاك برعب شديد حتى انها لم تطلق النار مرة واحدة . انبطحت مخفية وجهها خلف الصخرة ، وضغطت على اذنيها بيديها . وكانت بندقيتها ملقاة بجوارها . اما جينكا فافاقت بسرعة واخذت تطلق النار كيفما كان . لا يهم ان تصيب او تخيب ، فلسنا فى ميدان رماية ، ولا وقت للتصويب .

كانت كل نيرانهم رشاشين وبندقية قديمة ، ومع ذلك لم يصمد الالمان . طبعا لا لانهم خافوا ، ولكن لغموض الموقف . فتحوا النار قليلا ثم انسحبوا ، دون تغطية بالنار ، دون ساتر . . . هكذا انسحبوا . ارتدوا الى الغابة كما اتضح فيما بعد .

سكتت النيران دفعة واحدة ، وظلت كوميلكوفا فقط تطلق النار فيهتز بدنها مع ارتداد البندقية . وعندما افرغت الخزنة سكتت . ونظرت الى فاسكوف وكانها صعدت من تحت الماء . فقال فاسكوف متنهدا :

– خلاص .

ساد صمت كصمت القبور ، الى درجة الصفير فى الآذان . وانبعثت رائحة البارود وغبار الصخور والحريق . ومسح الشاويش وجهه فتلوثت يداه بالدم ، اذن فقد جرحته الشظية .

وسالت اسيانينا بهمس :

– هل جرحت ؟

فقال الشاويش :

– لا . . . تطلعى الى هناك يا اسيانينا .

وخرج من خلف الصخرة فلم يطلق احد النار . ودقق النظر : فى حرش البتولا البعيد الذى كان يلتقى بالغابة اهتزت قمم



الشجيرات . وتسلل بحذر الى الامام ، ضاغطا على المسدس فى يده . وركض فاختفى خلف الصخرة الاخرى ، ثم اطل ثانية . . . كانت بقع الدم تغطى الطحلب الذى مزقه الانفجار . دم كثير ولا جثث . . . لقد حملوها معهم .

وبعد ان تفقد فيدوت يفجرافيتش الصخور والخمائل زحفا وتاكد من ان المخربين لم يتركوا خلفهم ستارا ، عاد الى جنوده هادئا ودون ان يحنى قامته اثناء السير . كان وجهه يؤلمه ، وكان متعبا كما لو كان يحمل حملا من الحديد . لم تراوده حتى الرغبة فى التدخين . آه لو يستطيع ان ينام قليلا ، ولو عشر دقائق ، ولكنه ما ان وصل حتى بادرته اسيانينا بالسؤال :

– هل انت شيوعى يا شاويش ؟

– عضو فى حزب البلاشفة . .

– نرجوك ان تراس اجتماع الكومسومول .

ذهل فاسكوف .

– اجتماع ؟ . .

وتطلع فراى تشيتفرتاك تنتحب من جديد ، اما كوميلكوفا فكانت ملطخة بهباب البارود ، كالغجرية ، تقدح عيناها شررا وتصيح فى تشيتفرتاك :

– جبانة ! . .

آه ، هذه هى المسالة . . .

وبدا فيدوت يفجرافيتش يتحدث وهو يغلى :

– تقولين اجتماع ؟ هذا شىء عظيم ، رائع . . . اجتماع ! اذن فسنتخذ اجراء ، وندين الرفيقة تشيتفرتاك على ما بدر منها من ارتباك ، ونثبت ذلك فى المحضر . . . اليس كذلك ؟ . .

صمتن . حتى جالا كفت عن البكاء ، واصغت وهى تنشق بانفها .

– وبعد ذلك يوقع الالمان على محضرنا . . . حسنا ؟ . . لا ، ليس حسنا . ولذلك فبوصفى شاويشا وشيوعيا ايضا اقرر الغاء كل الاجتماعات فى الوقت الحاضر . وابلغكم عن الموقف : انسحب الالمان الى الغابة . فى مكان انفجار القنبلة دماء كثيرة ، يعنى قتلنا احدهم . يعنى اصبحوا الآن ثلاثة عشر . هذه هى المسالة الاولى ،

المسالة الثانية : بقى معى خزنة كاملـــة للرشاش ، وانت يا اسيانينا ؟

– خزنة ونصف .

– هكذا . اما بخصوص الجبن ، فلم يكن هناك جبن . الجبن يا بنات لا يظهر الا فى المعركة الثانية . اما هذا فارتباك فقط . . . بسبب عدم الخبرة . مضبوط يا مجندة تشيتفرتاك ؟

– مضبوط . . .

– اذن آمرك ان تمسحى دموعك ومخاطك . اسيانينا ، تقدمى وراقبى الغابة . على بقية المحاربين تناول الطعام والاستراحة بقدر الامكان . هل هناك اسئلة ؟ نفذوا الاوامر .

اكلوا فى صمت ، ولم يكن فيدوت يفجرافيتش راغبا فى الطعام ، بل كان يريد ان يظل جالسا ممددا ساقيه ، ولكنه مع ذلك اخذ يمضغ باجتهاد ، فلا بد من التزود بالقوة . ولم تكن مجنداته ينظرن الى بعضهن ، ومضغن الطعام بحيوية الشباب فلم يسمع سوى صوت القرقشة . لا باس بذلك ، اذن لم تفتر همتهن ، ما زلن صامدات .

مالت الشمس نحو المغيب ، وبدا طرف الغابة يظلم ، فاحس الشاويش بالقلق . لماذا تاخر المدد . . . كان بوسع الالمان فى هذا الغسق الضبابى ان ينقضوا عليه ثانية ، او ينسلوا مـــن الجانبين عبر عنق الزجاجة بين البحيرتين ، او يختفوا فى الغابات ، وحاول عندئذ ان تجدهم . كان من الضرورى ان يبدا البحث من جديد ، ويمسك بذيلهم ثانية ليقدر الوضع . كان ذلك ضروريا . . . ولكنهم كانوا منهكين .

نعم ، حتى الآن سارت الامور بصورة سيئة ، سيئة للغاية . تسبب فى هلاك احدى مجنداته ، وكشف نفسه للعدو ، وكان من الضرورى ان يستريحوا والوقت يمضى والمدد لا يصل . . .

ولكن فاسكوف سمح لنفسه باستراحة قصيرة بينما كانـــت اسيانينا تاكل . ثم نهض وشد حزامه بقوة وقال عابسا :

– ستذهب معى للبحث المجندة تشيتفرتاك . اعين اسيانينا هنا نائبا لى . المهمة : اتبعونا على مسافة كبيرة . اذا سمعتم طلقات آمركم بالاختباء . اختبئوا وانتظروا حتى ناتيكم . اما اذا لم نـات



فانسحبوا . انسحبوا بخفية نحو الغرب عبر مواقعنا السابقة حتى تصادفوا احدا فتبلغوا عن الموقف .

بالطبع جال فى خاطره انه لم يكن ينبغى ان ياخذ معـــه تشيتفرتاك فى مهمة كهذه . كان من المناسب تماما ان ياخـــذ كوميلكوفا ، فهى رفيق مجرب ، نعم مجرب مرتين فى يـــوم واحد . . . يندر ان تجد بين الرجال من يستطيع ان يتباهـــى بذلك . ولكن القائد ليس مجرد قائد ، بل عليه ايضا ان يربى جنوده . هكذا تقول اللوائح .

وكان الشاويش فاسكوف يحترم اللوائح . كان يحترمها ، ويحفظها عن ظهر قلب ، وينفذها بالحرف . ولذلك قال لجالا :

– اتركى الكيس والمعطف هنا . سيرى خلفى القدم فى القدم وراقبى ما افعل . ومهما حدث فلتلزمى الصمت . الزمى الصمت وانسى البكاء .

واصغت اليه تشيتفرتاك وهـــى تومئ براسها بسرعـــة وخوف . . .

## ١١

لماذا تجنب الالمان القتال ؟ الأنهم استطاعوا ان يقـــدروا باذنهم الخبيرة القوة (او بالاحرى اللاقوة) النارية للخصم ؟

لم تكن هذه اسئلة فارغة ، ولم يشغل فاسكوف نفسه بالبحث عن اجابة لها من باب الفضول . لابد ان تفهم العدو . ينبغى ان تكون كل حركة من حركاته وكل تنقل يقوم به واضحـــة لـــك كالشمس . فعندما تضع نفسك مكانه ، عندها فقط تستطيع ان تفكر مثلما يفكر . والحرب ليست مجـرد من الـــذى يقضى على الآخر ، بل من الذى يسبق الآخر فى التفكير . واللوائح موضوعة لكى تخلى راسك من المشاغل فتتفرغ للنظر البعيد ، الى الجانب الآخر ، لتفكر مثلما يفكر العدو .

ولكن مهما قلب فاسكوف الحوادث فى ذهنه ، ومهما فكر ، فقد توصل الى نتيجة واحدة : ان الالمان لا يعرفون عنهم شيئا . اذن فالجنديان اللذان قضى عليهما لم يكونا دورية امامية ، بل جماعة استطلاع ، ولما كان الالمان لا يدرون شيئا عن مصيرهما

فقد مضوا فى اثرهما مطمئنين . هذا ما توصل اليه فاسكوف ، ولكنه لم يدر حتى الآن ما هى الفائدة التى يستطيع ان يستخلصها من ذلك .

كان الشاويش يفكر ويقدح ذهنه ، ويقلب الوقائع كما يقلب ورق الكوتشينة ، ولكنه لم يحول انتباهه عن المسالة الاساسية . كان يسير بخفة ودون صوت ، ولو استطاع لارهف اذنيه ككلاب الصيد ، ولكن النسيم لم يجد عليه برائحة او صوت ، فمضى فاسكوف فى طريقه دون تباطؤ . وكانت هذه البنت التعيسة تجرجر قدميها من خلفه . كان فيدوت يفجرافيتش يلتفت نحوها كثيرا ، ولكنه لم يجد منها ما يستحق لفت نظرها اليه . كانت تسير بشكل عادى ، كما امرها . واذا كانت تسير بتراخ وبلا خفة فهذا بسبب ما عانته ، بسبب الرصاص الذى دوى فوق راسها .

ولكن جالا لم تعد تذكر ذلك الرصاص . كانت امام عينيها صورة اخرى : وجه سونيا الرمادى الحاد ، وعيناها الميتتان نصف المغمضتين ، وسترتها التى تصلبت من الدم ، و . . . فتحتان فى الصدر . رفيعتان كحد الموسى . لم تكن تفكر لا فى سونيا ، ولا فى الموت ، بل كانت تحس احساسا بدنيا ، والى درجة الدوار ، بالخنجر وهو ينغرز فى اللحم ، وتسمع صوت تمزق النسيج الحى ، وتشم رائحة الدم الثقيلة . لقد كانت دائما تعيش بحيوية فى عالم الخيال اكثر مما عالم الواقع . وكانت تريد الآن ان تنسى ذلك ، وتمحوه من ذاكرتها ، ولكنها لم تستطع . وولد هذا فى نفسها رعبا بليدا ثقيلا كالرصاص ، فسارت تحت عبء هذا الرعب وهى لا تعى من حولها شيئا .

ولم يكن فيدوت يفجرافيتش يعرف ذلك طبعا . لم يكن يعرف ان مجندته التى كان الموت والحياة بالنسبة لها وله الآن فى كفتى ميزان متعادلتين ، قد اصبحت فى حكم القتلى . حتى قبل ان تصل الى الالمان ، ودون ان تطلق النار على العدو مرة واحدة . . .

رفع الشاويش يده . . . لقد راى اثرا يمضى الى اليمين ، اثرا خفيفا لا يكاد يلحظ فوق الارض الصخرية المغطاة بالطحلب ، كان يلوح مظلما بالمياه التى تجمعت فى شقوقه . كما لو كان



الالمان قد تعثروا فجاة وهم يحملون حملا ثقيلا فطبعوا هنا اثرا لقدم عريضة .

وهمس الشاويش :

– انتظرى .

ومضى الى اليمين مبتعدا قليلا عن الاثر . ونحى اغصان الخميلة . من تحت الاغصان الملقاة على عجل لاحت اجساد فى حفرة ضحلة . وازاح فاسكوف الاغصان الجافة بحذر فراى فى الحفرة جسدين ممددين ووجهاهما الى اسفل . وجلس فيدوت يفجرافيتش القرفصاء واخذ يتاملهما : كان فى قفا اعلاهما ثقب دقيق ، بلا دماء تقريبا . وكان شعر القفا القصير مجعدا اذ لوحته النار .

وقال الشاويش مستنتجا :

– اجهزوا عليه . . . زملاؤه . اطلقوا النار على قفاه . اجهزوا على الجريح . . . اذن فهذا عرفهم . . .

وبصق . بصق على الموتى ، رغم ان هذا هو اعظم الذنوب جميعا . ولكنه لم يكن يحس تجاههم بشىء سوى الاحتقار : كانوا بالنسبة له خارج القانون ، خارج الحد الفاصل الذى يميز الانسان عن غيره .

فما يميز الانسان عن الحيوان هو ادراكه انه انسان . . . نعم . فاذا لم يكن لديه هذا الادراك فهو وحش . بساقين ويدين ، ولكنه وحش . وحش مفترس ، اخطر نفسه . وفى هذه الحالة لا يجب ان نشعر تجاهه لا بالانسانية ، ولا بالشفقة ، ولا بالرحمة . يجب ضربه . . . نعم ، ضربه حتى يزحف عائدا الى عرينه . وهناك ايضا لا بد من ضربه الى ان يتذكر انه كان انسانا ، الى ان يدرك ذلك .

فى النهار ، منذ عدة ساعات كان الغضب هو الذى يسوقه . الغضب البسيط كالظما : الدم بالدم . اما الآن فقد تراجع كل ذلك فجاة وهدا ، بل وسكن ، و . . . نضج فاصبح حقدا . . . حقدا باردا محسوبا . حقدا دون غل .

– اذن فهذا عرفهم ؟ . . حسنا ، سنراعى ذلك .

وبهدوء طرح هذين الاثنين ايضا من مجموع الالمان : بقى اثنا عشر . . . دستة .

وعاد الى حيث كانت تشيتفرتاك تنتظره ، لاحظ نظرتهـــا فاحس كان شيئا انخلع فى داخله . انها خائفة بشكل سيئ ، خائفة من الداخل . لا بأس ان لم يستمر هذا الى آخر العمر . ولذلك فقد استجمع الشاويش كل حيويته وابتسم لها ، كانهـا حبيبته الغالية ، وغمز لها بعينه :

– خلّصنا على اثنين هناك يا جالا ! يعنى بقى اثنا عشر . وهذا لا يخيفنا يا عزيزتى المجندة . اعتبرى ان هذا بالنسبـــة لنا كلام فارغ ! . .

لم ترد عليه بشىء ، بل حتى لم تبتسم ، ظلت فقط تحدق فيه . لو كان امامه رجل لكان ينبغـــى ، فى حالة كهـــذه ، ان يستفزه ، ان يسبه باقذع السباب ، او يوجه اليه لكمة . وكان فيدوت يفجرافيتش يعرف ذلك من تجربته الخاصة . اما معها فلم يكن يعرف كيف يتصرف . لم تكن لديه خبرة بذلك ، كمـــا ان اللوائح ايضا لم تنص على شىء فى مثل هذه الاحوال .

– هل سبق ان قرات عن بافل كورتشاجين ؟ * .

تطلعت اليه كانه مجنون ، ولكنها اومـــأت فتحمس فيدوت يفجرافيتش وقال :

– اذن قرات . اما انا فرايته كما اراك الآن . نعم . فقـد اخذونا نحن الممتازين فى الاستعداد الحربى والسياسى الى موسكو . وطبعا تفرجنا هناك على ضريح لينين ، ومختلف القصور والمتاحف . ثم قابلناه . شخص بسيط ، طيب ، رغم منصبه الكبير . اجلسنا بجواره ، وسقانا شايا وسالنـــا : كيف احوالكم فى الجيش يا فتيان ؟

فقالت جالا بهدوء :

– لماذا تكذب علىّ ؟ لماذا ؟ لقد اصيب كورتشاجيـــن بالشلل . وهو ليس كورتشاجين ، بل استروفسكى . وهـــو اعمى لا يرى شيئا ، ولا يتحرك ، وكما فى المعهد نكتب لـــه الرسائل الجماعية .

---

* بافل كورتشاجين بطل رواية «والفولاذ سقيناه» للكاتب السوفييتى نيقولاى استروفسكى . والرواية ترجمة ذاتية لحياة المؤلف . **المترجم** .



– ربما كان هناك كورتشاجين آخر ؟ . .

واحس بتانيب الضمير ، بل وبالحرارة فى بدنه . وعلاوة على ذلك هاجمه البعوض . بعوض المساء . . . من نوع خاص .

– ربما اكون قد اخطـــأت . . . لا اعرف . . . لا اعرف . ولكنهم قالوا لنا . . .

تردد صوت غصن يتحطم . نعم ، غصن يتحطـــم تحت قدم ثقيلة . والغريب انه احس بالفرح ، فهو فى حياته لم يكذب ابدا ، ولم يعرف الحرج امام مرؤوسيه ، وكان مستعدا الآن ان يحارب الاثنى عشر المانيا كلهم على ان يتحمل التوبيخ من بنت غريرة .

وهمس لها :

– الى الخميلة ! . . ولا تتحركى ! . .

تمكن من دسها فى الخميلة وتسوية الاغصان ، وانزوى هـــو نفسه خلف صخرة مجاورة فى الوقت المناسب . واطل : مـــرة اخرى يرى اثنين ، ولكنهما يسيران بحذر ، كانهما يخطوان فوق ارض ملتهبة ، ويمسكان الرشاشين على اهبة الاستعداد . وما كاد الشاويش يبدى عجبه من اصرار الالمان على التجول اثنين ، حتى اهتزت الغصون خلف هذين الاثنين وعن يسارهما ، فادرك ان حرس الدورية يسيرون من الجانبين ، وان الالمان قد اصابتهم حيرة حقيقية من ذلك القتال المفاجئ ومن اختفـــاء جنديـــى الاستطلاع .

وكان هو يراهم ، اما هم فلا يرونه ، ولذلك كانت ورقـــة «الآس» الرابحة بين يديه هو . صحيح انها الورقة الوحيـــدة ، ولكنه كان يستطيع ان يوجه بها ضربة مؤلمة . لا يجب فقط ان يستعجل ، لا ينبغى ابدا ، ولذلك انغرز فيدوت يفجرافيتش بكل جسده فى الطحلب ، وخاف حتى ان يطرد البعوض عن جبينـــه المبلل بالعرق . فليتسللوا ، وليديروا له ظهورهم ، وليكشفوا له عن وجهتهم ، فبعد ذلك سيبدأ اللعب ، سيخطو خطوتـــه . بالآس الرابح . . .

عندما يكون الانسان فى خطر فهو بين امرين : اما انه لا يدرك شيئا او ان عقله يعمل قدر اثنين . وبينما يكون احدهما مشغولا بحساب الخطوة التالية ، يهتم الآخر باللحظة الحاضرة ، فيـــرى

ويلاحظ كل شيء . وبينما كان فاسكوف يفكر فى خطوة الآس الرابح ، لم يحول بصره لحظة واحدة عن المخربين ولم ينس تشيتفرتاك ثانية واحدة . كلا ، لن يراها الالمان ، فهى مختبأة جيدا ، فى امان ، ويبدو انهم يمرون بعيدا عنها ، ولذلك فليس هناك خطر متوقع . بدا وكان الالمان يقسمون المكان الى قطع ، فوقع هو ومجندته فى وسط هذه القطع ، وان كانا ، فى الواقع ، فى قطعتين مختلفتين . اذن كان عليه ان ينتظر حتى يمضى الالمان ، ان يكف عن التنفس ويذوب فى الطحلب والحرش ، وبعد ذلك يتصرف . بعد ذلك يلتقى بمجندته ويحدد الاهداف ، ثم يفتح نيران بندقيته الحبيبة والرشاش الالمانى .

كل شيء يدل على ان الالمان يتحسسون نفس الطريق ، وعاجلا ام آجلا سيبلغون اسيانينا وكوميلكوفا . وبالطبع اقلق ذلك الامر الشاويش ، ولكن ليس الى تلك الدرجة ، فالبنتان قد تمرستا فى القتال وبوسعهما التصرف ، وكان بامكانهما اما ان تختبئا ، او تنسحبا بعيدا . خاصة وانه رسم خطوته اعتمادا على تلك اللحظة التى يصبح فيها الالمان – بعد ان يتجاوزوه – بين نارين .

سار الالمان مباشرة يسار الخميلة التى كانت تشيتفرتاك مختبئة فيها بحوالى عشرين مترا . ولم يكشف جنود الحرس السائرون من الجانبين عن انفسهم ، ولكن فيدوت يفجرافيتش كان يعرف اين سيمرون . وكان يبدو له انهم لن يصطدموا باحد ، ولكنه مع ذلك رفع بحذر ابرة الامان فى الرشاش .

كان الالمان يسيرون صامتين ، مائلين الى الامام وشاهرين الرشاشات . وكان الحرس يحميهم فلم يتلفتوا تقريبا الى جانبى طريقهم ، بل حدقوا بشدة امامهم وهم يتوقعون فى كل لحظة طلقة مقابلة . وبعد بضع خطوات سيكونون فى الفرجة التى بينه وبين تشيتفرتاك ، فتصبح ظهورهم منذ تلك اللحظة فى متناول بصره المسدد .

ولكن الاغصان انفرجت بجلبة ، وفجاة قفزت جالا من بينها . ركضت بطول قامتها وقد عقدت ذراعيها خلف راسها مجتازة الارض المكشوفة ومتجهة نحو الالمان وهى لا ترى ولا تعى بعد شيئا .



– آ – آ – آ . . .

ودوت دفعة قصيرة من الرشاش ، وانغرز الرصاص من على بعد عشر خطوات فى ظهر جالا النحيل المشدود اثناء الجرى ، فطارت الى الامام وانكفأت بوجهها على الارض دون ان تفك يديها المعقودتين على راسها رعبا . وضاعت صرختها الاخيرة فى حشرجة وشخير ، بينما كانت ساقاها لا تزالان تركضان وتختلجان وتنغرزان فى الطحلب بسن الحذاء . . . حذاء سونيا .

وسكن كل شيء فى تلك البقعة المكشوفة . . . ساد سكون مطبق لمدة ثانية ، حتى ساقا جالا ارتعشتا ببطء كانما فى الحلم . وكان فاسكوف لا يزال منزويا خلف صخرته دون ان تند عنه حركة وهو لا يدرك بعد ان كل خططه انهارت ، وبدلا من الآس الرابح وجد فى يديه ورقة ستة . ولم يكن يعرف كم كان سيظل ممددا هكذا وما هو تصرفه التالى ، لولا ان سمع خلفه وقع اقدام وصوت اغصان تتحطم فادرك ان الحارس الايمن يركض قادما الى هنا على صوت الطلقات ، يركض عبره مباشرة .

لم يكن ثمة وقت للتفكير ، فاستطاع فيدوت يفجرافيتش ان يقرر فقط الشيء الرئيسى ، ان يبعد الالمان . . . ان يبعدهم عمن تبقى من مجنداته ، ويستدرجهم وراءه . وحينما قرر ذلك قفز من مكانه كاشفا نفسه ، واطلق الرشاش على الجنديين اللذين انحنيا فوق جالا ، ورش دفعة تجاه صوت الاقدام الراكضة فى الخميلة ، ثم انحنى وركض مبتعدا عن السلسلة الزرقاء نحو الغابة .

ولم ير ان كان اصاب احدا ام لا . . . لم يكن لديه وقت لذلك . كان عليه الآن ان يخترق الالمان ويصل سليما الى الغابة ويحمى فتاتيه . نعم ، كان ينبغى عليه حتما ان يحميهما ، آخر من تبقى لديه ، كان ذلك واجبا عليه امام ضميره كرجل ، وكقائد . يكفيه من مات . . . يكفيه حتى آخر ايامه .

لم يركض الشاويش منذ زمن بعيد كما ركض فى ذلك المساء . كان يندفع من خميلة الى اخرى ، وينسل بين الصخور ، ويسقط وينهض ، ثم يركض من جديد ، ومرة اخرى يسقط وهو يهرب من الرصاص الذى كان يطير اوراق الشجر فوق راسه .

وكان يرمى الاشباح التى تلوح فى كل مكان بدفعات قصيرة ويثير ضجة . يكسر الخمائل ، ويخبط بقدميه ، ويصرخ حتى يبح ، فلم يكن يحق له ان ينسحب دون ان يسحب الالمان خلفه . وهكذا كان مضطرا لان يستدرجهم . . . ان يلعب بالنار .

كان مطمئنا تقريبا الى شىء واحد : ان الالمان لن يستطيعوا ضرب حلقة الحصار من حوله ، فهم لا يعرفون المكان ، كما ان عددهم اصبح قليلا لا يكفى لذلك ، والشىء المهم انهم لم ينسوا بعد ذلك الصدام المفاجئ ، ذلك القتال العرضى ، فكانوا يركضون بحذر . ولذلك كان يهرب منهم بسهولة حتى الآن ، وكان يستفزهم ويثير غضبهم لكيلا يكفوا عن المطاردة ، ولكيلا يفيقوا فيدركوا انه وحيد هنا ، نعم وحيد اذا شئنا الدقة .

ثم ان الضباب ساعده . . . كان ذلك الربيع ربيعا ضبابيا . ما ان تختفى الشمس خلف الافق حتى يغطى الضباب الاماكن المنخفضة كالدخان ، ويتراكم طبقات ويعلق بالخمائل . وفى ذلك الحليب الكثيف يمكن بسهولة ان تخفى لواء باكمله لا شخصا واحدا . وكان بوسع فاسكوف فى اية لحظة ان يغطس فى تلك السحابة كان لم يكن له وجود ! ولكن المصيبة ان هذه الالسنة البيضاء كانت تزحف نحو البحيرات ، اما هو فعلى العكس ، كان يريد ان يسحب الالمان خلفه الى الغابة . ولذلك لم يكن يغطس فى الضباب الا عندما لا يجد امامه مهربا آخر . ثم يخرج من الضباب ثانية : اهلا بحضرات الالمان . . . انا هنا !

وعموما فلا شك ان الحظ حالفه . ففى حالات تبادل نيران اقل من هذه بكثير كان يحدث ان يتحول المرء الى غربال ، اما هنا فمرت بسلام . لقد لعب مع الموت بما فيه الكفاية . . . لا بأس ، فقد جر خلفه الى الغابة كل هذه الجماعة ، وهنا رن رشاشه لآخر مرة ثم صمت . نفدت الطلقات ولم يكن معه ما يعمره به . وتعبت يداه من حمله فدسه تحت غصون جافة ، واخذ يتقهقر خفيفا . . . اعزل .

لم يكن هنا ضباب ، وكانت الرصاصات تنقر جذوع الاشجار فتتطاير القشور . الآن بوسعه ان يزوغ منهم ، هذا هو انسب وقت ليفكر فى نفسه ، ولكن الالمان ، وقد جن جنونهم ، تمكنوا



من حصره فى نصف دائرة ، وطاردوه دون هوادة ، مؤملين ، فيما يبدو ، ان يدفعوه نحو المستنقع ويمسكوا به حيا . كان وضعهم حرجا الى درجة انه لوكان فى محل قائدهم لما بخل باوسمة فى سبيل اسره ، ولمنحها بسخاء .

وما ان فكر فى ذلك ، ما ان بدا يحس بالفرحة لانهم لن يطلقوا عليه النار فيما يبدو ، حتى ضربه شىء فى ذارته ، فى اللحم ، اسفل المرفق ، فلم يدرك فيدوت يفجرافيتش فى البداية انها رصاصة ، وظن ان غصنا جرحه صدفة . ثم احس بالدم الدافئ يسيل على ذراعه . لم يكن يتدفق باندفاع ولكن بغزارة . . . يبدو ان الرصاصة مست الشريان . واحس فاسكوف بالرعب . . . فبذراع مصابة لن تحارب طويلا : ينبغى ان تكشف على الجرح ، وتضمده ، وترتاح قليلا ، فلن تستطيع بهذه الصورة ان تخترق حصار الالمان او تفلت منهم . لم يبق الا مخرج واحد : الانسحاب الى المستنقع ركضا ، وباقصى ما يستطيع .

ووضع كل قواه فى هذا الركض . وكان قلبه يدق فى موضع ما من حلقه عندما وصل الى شجرة الصنوبر المميزة . والتقط عودا ، ولاحظ انه تبقى خمسة ، ولكن لم يكن امامه وقت للتفكير ، فقد كانت الغابة تطقطق تحت وقع الاقدام الالمانية ، وتتردد فيها الاصوات الالمانية ، وتغنى فيها الطلقات الالمانية .

لم يستطع ان يتذكر ابدا كيف عبر المستنقع حتى وصل الجزيرة ، وعاد الى وعيه فقط هناك ، تحت الصنوبرات المتشعبة . عاد الى وعيه بسبب البرد : كان يرتعد واسنانه تصطك . وكانت ذراعه تؤلمه ، ربما بسبب الرطوبة . . .

لم يستطع فيدوت يفجرافيتش ان يتذكر كم مر عليه وهو راقد هنا . واضح انه مر وقت غير قليل ، لان الصمت كان سائدا حوله . . . لقد انسحب الالمان . قبيل الفجر ازداد الضباب وترسب وجعلت هذه الرطوبة كل عظمة ترتعش فى بدن فاسكوف . ولكن الدم لم يعد يسيل من الجرح . كانت ذراعه ملوثة بوحل المستنقع حتى كتفه ، ويبدو ان الوحل سد ثقب

الرصاصة ، فلم يحاول الشاويش ان ينظفه . لف يده بشريط وجده فى جيبه لحسن الحظ ، ثم اجال النظر حوله .

بدا الضوء يلوح خلف الغابة ، وفوق المستنقع تراقصت الومضات عاليا فى السماء ضاغطة الضباب الى الارض . اما هنا ، فى قاع السهل فكان الضباب كالحليب المثلج ، فاخذ فيدوت يفجرافيتش يرتعد من القشعريرة وهو يفكر باسى فى الزمزمية المنشودة . كان لا بد لكى يبعث الدفء فى بدنه من ان يقفز ، فاخذ يقفز ويعدو حتى بلله العرق . وفى تلك الاثناء كان الضباب قد خف واصبح من الممكن ان يدقق النظر فيما حوله .

لم يلاحظ فاسكوف شيئا ذا خطر من ناحية الالمان رغم اطالته النظر الى هناك . من المحتمل بالطبع ان يكون الالمان متربصين فى انتظار عودته ، ولكنه احتمال ضعيف ، فالمستنقع فى ظنهم لا يمكن عبوره ، واذن فالشاويش فاسكوف بالنسبة لهم اصبح فى عداد الغرقى منذ وقت طويل .

ولم يحاول فاسكوف ان يتطلع كثيرا الى الناحية الاخرى ، تلك الناحية التى تفضى الى التحويلة ، الى ماريا نيكيفروفنا مباشرة . فى تلك الناحية لم تكن هناك اية اخطار ، بل بالعكس ، كانت هناك الحياة :نصف كوب من الكحول ، وبيض مقلى بشحم الخنزير ، وربة الدار الرقيقة . آه ، كم كان يود الا ينظر الى تلك الناحية ، ان يدير ظهره للاغراء ، ولكن المدد لم يأت من هناك لسبب ما ، ولذلك اخذ يتطلع الى هناك رغم كل شيء .

كان شيء داكن يلوح هناك . ولم يستطع الشاويش ان يميز هذا الشيء . وفى لحظة ما عن له ان يذهب الى تلك البقعة الداكنة ليفحصها ، ولكنه كان يلهث من قفزه ، فقرر ان يسترد انفاسه . وعندما استرد انفاسه كان الضوء قد اصبح كافيا ليدرك ما هو الشيء الداكن الذى يلوح فى وحل المستنقع . ادرك فتذكر على الفور انه تبقى عند الصنوبرة المميزة خمسة عيدان كان قد قطعها بنفسه . خمسة . . . اذن فالمجندة بريتشكينا خاضت فى هذا المستنقع الملعون بدون عصا تتوكأ عليها . . .

لم يبق منها غير جونلتها العسكرية . . . لم يبق شيء آخر ، ولا حتى الامل فى وصول المدد . . .





. . . وتذكر فاسكوف فجأة ذلك الصباح الذى احصى فيه الالمان الخارجين من الغابة . تذكر همسات سونيا قرب كتفه اليسرى ، وعينى ليزا بريتشكينا المذعورتين ، وتشيتفرتاك فى حذائها الليفى . تذكر ذلك وقال بصوت عال :

– اذن فلم تصل بريتشكينا . . .

وانداح صوته المبحوح المشروخ فوق المستنقع ، ثم سكن كل شيء من جديد . حتى البعوض كان يحط دون صوت هنا ، فى هذا المكان الميت .وزفر الشاويش ثم مضى يخوض فى الوحل . كان يسير نحو الشاطىء وهو يتوكأ بشدة على العود ، ويفكر فى كوميلكوفا واسيانينا ، ويأمل ان تكونا على قيد الحياة . وفكر ايضا فى ان كل ما لديه من سلاح هو هذا المسدس المعلق فى خصره .

لو كان المخربون قد تركوا هنا شخصا واحدا لظل الشاويش فاسكوف مغروز الانف فى الوحل الى ان يتحلل بدنه فقد كان بوسعهم ان يصطادوه من مسافة خطوتين ، لانه كان يسير نحو الشاطىء مغمورا فى الوحل ومكشوفا ، حتى الانبطاح والاختفاء كان مستحيلا . ولكن الالمان لم يتركوا احدا ، فسار فيدوت يفجرافيتش دون عقبات حتى وصل الجدول المعروف ، واغتسل على عجل وشرب حتى ارتوى . ثم اخرج من جيبه ورقة ، ولف لفافة من الطحلب الجاف ، وقدح زناده واشعلها . الآن كان بامكانه ان يفكر .

واتضح من حساباته انه خسر بالامس حربه كلها ، رغم انه قضى على خمسة وعشرين فى المائة من قوة العدو بالتمام والكمال . خسرها لانه لم يستطع صد الالمان ، ولانه فقد بالضبط نصف افراده واستنفد كل مخزون الذخيرة ولم يبق معه سوى مسدس . ومهما حاولت ان تبرر او تنتحل الاعذار فقد كانت الامور سيئة . واسوأ ما هنالك انه لا يعرف الآن اين يبحث عن المخربين . كان فاسكوف يشعر بالمرارة ، ربما بسبب الجوع ، او اللفافة العطنة التى كان يدخنها ، او ربما

بسبب الوحدة والافكار التى كانت تطن فى راسه كالزنابير . . . تلدغ دون ان تعطىفى المقابل عسلا . . .

بالطبع كان عليه ان يصل الى فتياته . صحيح انه لم يبق لديه سوى فتاتين ، ولكنهما كانتا اشطر الفتيات . ولو اجتمعوا ثلاثتهم ، لاصبحوا قوة ، ولكنها قوة لا تملك ما تضرب به . اذن كان عليه كقائد ان يجيب على سؤالين مرة واحدة : ما العمل ، وبم يقاتلون . وقبل ذلك كان لا بد من شىء آخر : ان يستوضح الموقف لنفسه اولا ، ويعثر على الالمان ويحصل على السلاح .

بالامس طارده الالمان وكانهم فى ديارهم ، فتركوا آثارا لا تحصى . وسار فيدوت يفجرافيتش مقتفيا هذه الآثار وكانه يقرا خريطة واخذ يرتب فى ذهنه الدلائل ويحصى الالمان . واتضح من هذا الحساب ان مطارديه لا يمكن ان يزيدوا عن عشرة ، ربما بقى بعضهم يحرس الحاجيات او انه قتل منهم احدا . ومع ذلك كان عليه ان يعتبر انه يواجه دستة فبالامس لم يكن لديه متسع من الوقت ليصوب بدقة .

وقادته الآثار الى طرف الغابة ، حيث تكشفت له من جديد بحيرة فوب والسلسلة الزرقاء وحرش الصنوبر الذى يمتد الى اليمين قليلا . وهنا توقف فيدوت يفجرافيتش بعض الوقت لكى يتفحص المكان ، ولكنه لم يستطع ان يلاحظ احدا . . . لا فتياته ولا العدو . امتد امامه السكون وخيم الصمت وهدوء الصباح الخلاب . وفى هذا النعيم الساحر كان يختفى جنود الرشاشات الالمان وفتاتان روسيتان تحتضنان بندقيتيهما .

ورغم الاغراء الذى راوده بالبحث عن الفتاتين فى منطقة الصخور هذه ، فلم يخرج من الغابة . لا ينبغى ان يخاطر بحياته ، لا ينبغى ابدا ، لانه رغمكل المرارة واليأس لم يعتبر نفسه مهزوما ، بل ولم تخطر له هذه الفكرة على البال ، والحرب لا يمكن ان تنتهى بالنسبة له عند هذا الحد . ولذلك فبعد ان شبع فيدوت يفجرافيتش من النظر الى الآفاق البعيدة والهدوء الشامل ، غاص من جديد فى قلب الغابة واخذ يتسلل ملتفا حول السلسلة متوجها الى شاطئ بحيرة ليجونتوفو .



كان تقديره بسيطا كمسالة طرح . بالامس جرى الالمان وراءه حتى ساعة متاخرة . ورغم ان الليالى كانت هنا بيضاء ، مضيئة ، لكنهم لن يخاطروا باقتحام شىء مجهول لهم . اذن كان عليهم ان ينتظروا حتى الفجر . وافضل مكان لانتظار هذا الفجر هو الغابة عند بحيرة ليجونتوفو ، لكيلا يكون انسحابهم ، — عند الضرورة — تجاه المستنقع . ولذلك فقد سار فيدوت يفجرافيتش مبتعدا عن لسان الصخور المعروفة متوجها الى اماكن مجهولة .

سار هنا بحذر ، من شجرة الى شجرة ، لان الآثار انقطعت فجاة . ولكن الغابة كانت هادئة الا من غناء الطيور ، فادرك فيدوت يفجرافيتش من هذا الغناء انه ليس هناك احد على مقربة من هذا المكان .

وهكذا سار طويلا ، حتى بدا يخيل اليه انه يسير عبثا ، وانه اخطا الحساب وانه يبحث عن المخربين حيث لا يوجدون . ولكنه لم يكن يملك من دليل سوى حدسه ، وقد اخبره حدسه انه اختار الطريق الصحيح . وما ان بدا يشك فى حدسه وحاسة الصياد لديه ، ما ان توقف ليعيد حساباته ويزن الامور من جديد ، حتى قفز امامه ارنب . قفز من بين الاشجار ووقف على ساقيه الخلفيتين دون ان يشعر بوجود فاسكوف ، واخذ يتطلع الى الخلف . كان ارنبا مذعورا ، وقد ارعبه اناس غرباء لانه كان يتطلع خلفه بفضول . وارهف الشاويش ايضا اذنيه ، كالارنب ، واخذ يتطلع الى تلك الجهة .

ولكن مهما تطلع ، ومهما انصت ، فلم يلاحظ شيئا غير عادى هناك . وكان الارنب قد اختفى منذ فترة طويلة ، ودمعت عينا فيدوت يفجرافيتش من شدة التحديق ، لكنه ظل واقفا لا يتحرك ، لانه كان واثقا من هذا الارنب اكثر من ثقته باذنيه . ولهذا فقد مضى يتسلل بخفة ، كالظل ، الى تلك الناحية التى كان الارنب يتطلع اليها .

فى البداية لم يلاحظ شيئا ، ولكنه راى بعد ذلك شيئا بنيا يلوح بين الاغصان ، شيئا غريبا يبدو مغطى بالطحلب فى بعض اجزائه . وخطا فاسكوف كاتما انفاسه وازاح الاغصان بيده فكاد يصطدم بجدار عتيق مغطى بالطحلب لكوخ مغروز فىالارض .

«صومعة ليجونت» – قال الشاويش فى سره .

وتقدم برفق فتجاوز زاوية الكوخ ، فراى قاعدة خشبية متآكلة لبئر ، ودربا غطاه العشب ، وباب الكوخ مخلوعا لا تمسك به سوى مفصلة واحدة . واخرج المسدس واصاخ حتى طنت اذناه ، ثم تسلل نحو المدخل ، ونظر الى كتف الباب والى المزلاج الصدئ ، ورأى العشب المدعوك ، واثرا لم يجف بعد على درجة السلم ، فادرك ان الباب قد خلع منذ ساعة على الاكثر .

لماذا خلع الالمان باب هذه الصومعة المهجورة ؟ طبعا لم يخلعوه بدافع الفضول ، اذن فقد كانوا بحاجة الى ذلك . اذن كانوا يبحثون عن مأوى فربما كان معهم جرحى ، او ربما يريدون اخفاء شىء ما ولم يجد الشاويش تفسيرا آخر . ولذلك فقد عاد الى الاختباء بين الخمائل وهو يحاذر باهتمام خاص لكيلا يترك اثرا وراءه . زحف خلف الاغصان وجمد فى مكانه .

وما ان بدأ البعوض يهاجمه حتى صاح عقعق فى مكان قريب . ثم طقطق غصن ، ورن شىء ما ، وخرج من الغابة الاثنا عشر المانيا كلهم ، واحدا وراء الآخر ، متجهين صوب صومعة ليجونت . كان احد عشر شخصا يحملون لفائف (فهم فاسكوف انها المتفجرات) اما الثانى عشر فكان يعرج بشدة متوكئا على عصا . واقتربوا من الصومعة ، فوضعوا عنهم اللفائف ، وجلس الجريح فورا على درجة السلم . واخذ احدهم ينقل المتفجرات الى الكوخ ، بينما اشعل الباقون السجائر واخذوا يناقشون امرا ما وهم يتطلعون الى الخريطة بالدور .

كان البعوض ينهش جسد فاسكوف ويمتص دمه ، ولكنه كان يخشى حتى ان يطرف . فقد كان على بعد خطوتين من الالمان ، مطبقا على المسدس فى يده ويسمع كل ما يقولون دون ان يفهم حرفا . فكل ما يعرفه من الالمانية ثمانى عبارات حفظها من دليل المحادثة ، بل ولا يفهمها الا اذا نطقها شخص روسى على مهل وبتنغيم .

ولكنه لم يكن بحاجة الى التخمين ، فقد اشار كبيرهم الذى كان يقف وسطهم ممسكا بالخريطة التى يتطلعون اليها ، اشار بيده ، فانطلق هؤلاء العشرة نحو الغابة شاهرين الرشاشات .



وبينما كانوا يختفون فى الغابة ساعد الجندى الذى كان ينقل المتفجرات زميله الجريح على النهوض وجره الى داخل الكوخ .

اخيرا استطاع فاسكوف ان يلتقط انفاسه ويصفى حسابه مع البعوض . اصبح كل شىء واضحا الآن ، والعنصر الحاسم هو الوقت . لم يتوجه الالمان نحو السلسلة الزرقاء بحثا عن الثمر البرى . اذن فهم لا يريدون الالتفاف حول بحيرة ليجونتوفو عبر الطريق الطويل ، بل يمضون بعناد نحو اللسان الصخرى . وقد ذهبوا الآن الى هناك خفافا . . . ليبحثوا عن ثغرة .

بالطبع لم يكن هناك اسهل من ان يسبقهم ، ويجد الفتاتين ويبدأ كل شىء من جديد . منعه من ذلك شىء واحد : السلاح . فبدونه لا يجوز حتى ان يفكر فى الوقوف بوجه الالمان .

كان فى هذا الكوخ الآن رشاشان ، خلف هذا الباب المائل . رشاشان باكملهما ، ثروة كبيرة ، ولكن فاسكوف لم يكن يعرف حتى هذه اللحظة كيف يستولى على تلك الثروة . لم يكن من الحكمة ان يهاجم مباشرة ، بعد ليلة من السهاد وبذراع مصابة . ولذلك ، فبعد ان حدد فيدوت يفجرافيتش اتجاه الريح ، قرر الانتظار حتى يخرج الالمان من الكوخ .

واخيرا خرج ذلك المخرب بسحنته المنتفخة من لدغات البعوض ، خرج الى حتفه الاكيد . . . يبدو انه اراد ان يشرب . خرج بحذر والرشاش تحت يده ومن خصره تدلت زمزميتان . واخذ يتطلع مدة طويلة ويتنصت ، ولكنه انفصل اخيرا عن الجدار واتجه نحو البئر . وعندئذ رفع فاسكوف مسدسه ببطء ، وحبس انفاسه كما فى مباريات الرماية ، وضغط على الزناد برفق . ودوت طلقة ، فانطرح الالمانى الى الامام بشدة . واطلق الشاويش عليه رصاصة اخرى ليطمئن الى قتله وهم بالقيام ، ولكنه لمح بمعجزة بريق ماسورة الرشاش السوداء فى شرخ الباب المائل فتسمر فى مكانه . لقد كان الالمانى الآخر ، ذلك الجريح ، يحمى زميله ، وقد رأى كل شىء ، وكان الجرى نحو البئر يعنى الهلاك .

وتثلجت اطراف فاسكوف . سيطلق ذلك الجريح دفعة من رشاشه . . . هكذا ، فى الهواء . . . دفعة مدوية منذرة ، فينتهى كل شىء . سيخف الالمان الى هنا فى غمضة عين ، فيمشطون

الغابة ، وتنتهى عند هذا الحد خدمة الشاويش العسكرية . لن يستطيع الهرب مرة ثانية . . .

ولكن الالمانى لم يطلق النار لسبب ما . كان ينتظر شيئا ما . . . كان يدير ماسورة رشاشه بحذر ولا يطلق اشارة الاستغاثة . لقد راى كيف انكفأ زميله على قاعدة البئر ، وما زالت قدماه تختلجان ، نعم راى ذلك ، ولم يطلق النار مستغيثا . كان ينتظر . . . ما الذى كان ينتظره ؟

وفجأة ادرك فاسكوف . . . ادرك كل شىء : انه يريد ان ينقذ نفسه ، هذا الفاشستى الجبان ، كان لا يبالى بزميله المحتضر ، ولا بالامر العسكرى ، ولا بزملائه الذين ذهبوا الى البحيرة . كان يفكر الآن فى نفسه فقط ، محاولا الا يلفت الانظار اليه . كان يخاف من الخصم المختفى لدرجة الرعب ويضرع الى الله ان يمر بسلام ، وهو راقد هنا خلف جذوع الكوخ الغليظة .

نعم ، لم يبد الالمانى بطلا عندما حدق الموت فى عينيه ، لم يبد بطلا على الاطلاق . وعندما ادرك الشاويش ذلك تنهد بارتياح .

دس فيدوت يفجرافيتش المسدس فى قرابه وزحف الى الوراء ، ثم دار حول الكوخ بسرعة واقترب من البئر من الناحية الاخرى . وكما توقع لم يكن الالمانى الجريح ينظر الى القتيل ، فزحف الشاويش نحوه باطمئنان ، ونزع عنه الرشاش وكيس الخزنات الاضافية ، وانسحب الى الغابة دون ان يلحظه الالمانى الآخر .

كان كل شىء يتوقف الآن على سرعة جريه ، لانه اختار طريقا ملتويا . وكان عليه ان يخاطر ، فخاطر ، ومر الامر بسلام . واندفع مقتحما حرش الصنوبر الذى كان يفضى الى السلسلة ، وعندها فقط توقف ليلتقط انفاسه .

كانت الاماكن هنا معروفة ، قطعها زحفا على بطنه . وفى مكان ما قريب كانت فتاتاه مختبئتين ، ان لم تكونا قد انسحبتا شرقا . ورغم انه امرهما بالانسحاب اذا حدث له شىء ، لكنه لم يصدق انهما نفذتا امره بالحرف . لم يكن يصدق ولا يريد ان يصدق .

استراح هنا قليلا وهو يصيخ الى اى صوت قد يصدر عن الالمان ، ثم مضى بحذر نحو السلسلة الزرقاء ، فى نفس الطريق

الذى سار فيه مع اسيانينا بالامس . كانوا جميعا على قيد الحياة آنذاك . . . جميعا ما عدا ليزا بريتشكينا . . .

لقد انسحبتا مع ذلك . وفى الحقيقة لم تنسحبا بعيدا ، بل الى ما وراء النهر ، حيث لعبوا بالامس تمثيلية خداع الالمان . ولكن فيدوت يفجرافيتش لم يفطن الى ذلك ، وعندما لم يجدهما خلف الصخور ولا فى الموقع القديم ، خرج الى الشاطئ لا بحثا عنهما وانما بدافع الحيرة . فقد ادرك فجاة انه اصبح وحيدا ، وحيدا تماما ، بذراع مثقوبة ، فداهمه حزن شديد ، واختلط كل شىء فى ذهنه ، حتى انه وصل الى هذا المكان وهو لا يكاد يتمالك نفسه . وما ان جثا على ركبتيه ليشرب حتى سمع صوتا يهمس :

– فيدوت يفجرافيتش . . .

وتبعته صرخة :

– فيدوت يفجرافيتش ! . . يا شاويش ! . .

رفع راسه بشدة فرآهما تخوضان النهر عدوا دون ان تشمرا جونلتيمها . فاندفع نحوهما ، وتعانقوا وسط المياه . تعلقتا به معا ، وانهالتا عليه بالقبل . . . هو الملطخ بالاوحال ، المبلل بالعرق ، غير الحليق . . .

– ما هذا يا بنات ! ما هذا !

وكان هو نفسه يجاهد لكيلا تفر الدموع من عينيه . كانت تكاد تسقط من رموشه . . . يبدو انه اصبح ضعيفا . ووضع يديه على كتفى فتاتيه وضمهما ، وعلى هذه الصورة ساروا الى الضفة الاخرى .

– آه يا بناتى ، يا بناتى ! هل اكلتم ولو لقمة ؟ هل نمتم ولو لحظة ؟

– لم نشعر بالرغبة يا شاويش . . .

– اى شاويش انا الآن بالنسبة لكم يا اخواتى ؟ انا الآن كاخ . فلتدعونى فيدوت . . . او فيديا ، كما كانت امى تنادينى . . .

كانت الاكياس والبنادق والمعاطف مخباة بين الاغصان ، فاسرع فيدوت الى كيسه . وما ان شرع يفك رباطه حتى سألت جينيا :



– وجالا ؟

سألت بصوت خافت وبتردد . . . فقد فهمتا كل شىء . كانتا فى حاجة الى التاكد فقط . ولم يرد الشاويش . فك رباط كيسه فى صمت ، واخرج قطعة خبز جافة والشحم والزمزمية . وصب الكحول فى اقداحهم الثلاثة وقسم الخبز وقطع الشحم . ووزع ذلك على المجندتين ورفع كوبه :

– ماتت رفيقاتنا ميتة الابطال . استشهدت تشيتفرتاك اثناء اطلاق النار ، وغرقت ليزا بريشكينا فى المستنقع . اذن بسونيا ثلاثة . هذه حقيقة . ولكننا جعلنا العدو يدور هنا ، بين البحيرات ، يوما كاملا ! ٢٤ ساعة ! والآن جاء دورنا نحن لنكسب منه يوما آخر . ولن يساعدنا احد ، والالمان قادمون الآن الى هنا . فهيا نشرب فى ذكرى اخواتنا ثم نستعد للمعركة . . . آخر معركة على ما يبدو . .

## ١٣

قد تقع احيانا كارثة . . . كالدبة الشرسة . تنهال عليك نهشا وتمزيقا حتى تكره حياتك والدنيا كلها . ثم تتركك ، فكانه لم يحدث شىء ، واذا بوسعك ان تلتقط انفاسك ، وتعيش ، وتعمل . كان شيئا لم يكن .

وقد يحدث شىء تافه ، خطا بسيط . . . واذا بهذا الشىء التافه يجر وراءه اشياء ، لا اراها الله لاحد .

وهذا الشىء التافه هو ما اكتشفه فاسكوف بعد ان افطروا واخذوا يستعدون للقتال . قلب كيسه وفتش اشياءه كلها ثلاث مرات ولم يجدها . . . ضاعت .

كانت كبسولة القنبلة اليدوية وطلقات المسدس اشياء تافهة . ولكن القنبلة بدون كبسولة مجرد قطعة حديد . قطعة حديد صماء كالحجر .

– لم تعد لدينا مدفعية يا بنات .

قالها مبتسما حتى لا تحزنا ، فاذا بهما ، الحمقاوان تبتسمان له وتتهللان :

– لا بأس يا فيدوت ، سنصمد !

كوميلكوفا هى التى ردت ، وتلعثمت وهى تناديه باسمه مجردا . واحمرت . شىء مفهوم طبعا ، فمن الصعب ان تنادى القائد باسمه مجردا .

كل ما لديهم للاشتباك ثلاث بنادق ورشاشان ومسدس . لن تصول او تجول بها اذا فتحت عليك النار من عشر رشاشات . ولكن علينا ان نعتقد ان الغابة ستنقذنا . الغابة والنهر .

– خذى يا ريتا خزنة للرشاش . لا تطلقى من بعيد . عبر النهر اضربى بالبندقية ووفرى الرشاش . فعندما يبداون العبور ستحتاجين اليه جدا . جدا . . . فهمت ؟

– فهمت يا فيدوت . . .

وتلعثمت هى الاخرى ، فضحك فاسكوف وقال :

– اظن فيديا اسهل . . . اسمى هذا غير مريح طبعا ، ولكن ليس عندى غيره . . .

حقا لم تمر الاربع والعشرون ساعة عبثا بالنسبة للالمان . لقد زادوا درجة اليقظة ثلاثة اضعاف ، ولذلك كانوا يسيرون ببطء ، ويفحصون كل خميلة . ومشطوا كل ما استطاعوا تمشيطه وظهروا عند الشاطىء عندما كانت الشمس قد ارتفعت عاليا فوق الغابة . وتكرر كل شىء بالضبط ، غير ان الغابة هذه المرة لم تكن تضج امام الالمان باصوات الفتيات ، بل قابلتهم بصمت ووجوم منذر بالخطر . واحس المخربون بهذا الخطر فلم يقتربوا من الماء مدة طويلة ، وان لاحوا بين الاغصان على الجانب المقابل .

ترك فيدوت يفجرافيتش الفتاتين عند القطاع العريض من الشاطىء بعد ان اختار لهما المواقع بنفسه وحدد العلامات المميزة . اما هو فقد اخذ على عاتقه ذلك الراس الذى اوقفت جينكا كوميلكوفا الالمان عنده بالامس بجسدها العارى . كان الشاطئان هنا يكادان يلتقيان ، وكانت الغابة تبتدىء من الماء مباشرة ، فلم يكن هناك مكان افضل منه لعبور العائق المائى . وهنا بالذات كان الالمان يكشفون انفسهم اكثر لكى يستفزوا من تخونه اعصابه فيطلق النار اولا . ولكن احدا الى الآن لم تخنه اعصابه لان فاسكوف اصدر اوامره المشددة الى مجندتيه بالا تطلقا النار الا عندما يخوض



الالمان الماء . اما قبل ذلك فلتحبسا انفاسهما ما وسعهما لكيلا تجفل الطيور .

كان كل شىء معدا وفى متناول يده : البنادق وقد عمرت مسبقا ورفعت ابر الامان فيها حتى لا تصيح طيور العقعق قبل الاوان . وكان الشاويش ينظر بهدوء كامل تقريبا الى ذلك الشاطىء ، وان كانت يده اللعينة تؤلمه كضرس لسعه البرد .

اما فى الجانب المقابل فكان كل شىء مختلفا : كانت الطيور هاجعة والعقعق يزعق باعلى صوته . ولاحظ فيدرت يفجرافيتش كل ذلك الآن واخذ يقدره ويرتبه لكى يقتنص اللحظة المناسبة ، عندما يمل الالمان لعبة تبادل النظرات .

لكن الطلقة الاولى لم تصدر عنه ، ورغم انه كان يتوقعها الا انه انتفض عندما سمعها ، فالطلقة دائما غير متوقعة ، ودائما مفاجئة . دوت عن يساره ، اسفل النهر ، ثم تبعتها ثانية فثالثة ونظر فاسكوف فراى عند القطاع العريض المانيا يخرج من الماء الى الشاطىء نحو زملائه زاحفا على اربع ، والرصاص يطش من حوله ولا يصيبه . وجرى الالمانى على اربع وهو يجر ساقه على الحصى الصاخب .

وهنا دوت الرشاشات لتغطى انسحاب الجريح ، واراد الشاويش ان يقفز لنجدة الفتاتين ولكنه امسك عن ذلك . وفى الوقت المناسب : فقد انحدر من بين الاغصان فى الشاطىء المقابل اربعة جنود معا ، مؤملين فيما يبدو ان يعبروا النهر تحت ستار النار ويختفوا فى الغابة . لم تكن البندقية تجدى شيئا فى هذه الحالة ، لانه لم يكن ثمة وقت لشد ترباسها بعد كل طلقة ، فتناول فيدوت يفجرافيتش الرشاش . وما ان ضغط على الزناد ، حتى ومضت فى الخمائل المقابلة نقطتان مضيئتان ، واز الرصاص فوق راسه كالمروحة وهو يشق الهواء .

كان فاسكوف يدرك شيئا واحدا فى هذه المعركة . . . الا يتراجع . الا يسلم للالمان شبرا واحدا من هذا الشاطىء . ومهما يكن الموقف صعبا وميئوسا منه ، فلا بد من الصمود . . . الصمود فى الموقع ، والا فهى النهاية لو داسوه . وراوده احساس ، كما لو ان خلف ظهره بالذات تجمعت روسيا كلها ، وكانما كان

هو بالذات ، فيدوت يفجرافيتش فاسكوف ، آخر ابنائها وحماتها . ولم يعد فى العالم كله شيء آخر . . . الا هو ، والعدو ، وروسيا .

وراح يصغى باذن ثالثة الى الفتاتين : هل ما زالت بندقيتاهما تطلقان النار . نعم تطلقان .. اذن فهما على قيد الحياة .. . اذن فهما صامدتان دفاعا عن جبهتهما . . . عن روسياهمـــا . . . صامدتان !

ولم يراوده الخوف حتى عندما بدات القنابل اليدوية تنفجر هناك . كان يحس ان اطلاق النار سيتوقف وشيكا لانه لم يكـــن بوسع الالمان ان يخوضوا معركة طويلة مع خصم لا يعرفون قوته الحقيقية . كان عليهم ايضا ان يتوقفوا ليراجعوا اوراقهم ثم يبداون من جديد . واولئك الاربعة الذين اندفعوا نحوه مباشرة ، ارتدوا على الفور ، وبمنتهى المهارة حتى انه لم يتمكن من ملاحظة ان كان اصاب احدا منهم ام لا . اندسوا فى الخمائل واطلقوا النار قليلا للارهاب ثم سكنوا . ولم يبق الا غلالة من الدخان معلقة فـــوق الماء .

لقد كسب بضع دقائق . صحيح ان الصمود اليوم لا يجب ان يحسب بالدقائق ، لان النجدة لن تاتى ، ومع ذلك فقد عضـــوا العدو ، واظهروا له انيابهم . ولن يجرؤ على اقتحام هذا المكان للمرة الثانية ببساطة . سيحاول اكتشاف ثغرة فى مكان آخر ، واغلب الظن فى اعلى النهر ، لان الرؤوس الصخرية اسفل النهـــر كانت تنحدر بشدة نحو الماء مباشرة . اذن فينبغى عليه ان يسرع فورا الى اعلى النهر ويتـــرك هنا ، فى مكانه ، احدى الفتاتيـــن تحوطا . . .

ولم يتمكن فاسكوف من اكمال تخطيط مواقعه ، اذ سمع وقع خطوات خلفه فالتفت . كانت كوميلكوفا تركض نحوه باندفاع .

– انحنى ! . .

– اسرع . . . ريتا ! . .

لم يحاول فاسكوف ان يسالها ماذا جرى لريتا . . . ادرك ذلك من عينيها فالتقط سلاحه ووصل قبل كوميلكوفا . كانت اسيانينا تجلس منكمشة تحت صنوبرة ، مسندة ظهرهـــا الى الجذع . وجاهدت لكى ترسم ابتسامة على شفتيها الرماديتين وهى



تلعقهما بلسانها بين الحين والآخر . وكان الدم يسيل على ذراعيها المعقودتين على بطنها :

وسال فاسكوف فقط :

– بماذا ؟

– قنبلة . . .

مدد ريتا على ظهرها وامسك بيديها فلم ترد نزعهما وهـــى تخشى الالم . ولكنه نحاهما برفق فادرك انها النهاية . . . كان من الصعب حتى ان يرى ماذا هناك ، فقد اختلط كل شيء . . . الدم والسترة الممزقة وحزام الجندية المغروز فى لحمها . . .

فصاح :

– هاتى خرقا . . . ملابس !

واخذت جينكا تمزق كيسها باصابع مرتعشة ،، ومدت لـه شيئا خفيفا ، ناعما . . .

– ليس حريرا ! كتان !

– لا يوجد . . .

– آه ، ياللشيطان ! . . – واسرع الى كيسه واخذ يفـك رباطه ، فلسوء الحظ كان معقودا بشدة . . .

– الالمان . . . – قالت ريتـــا بشفتيهـــا فقط دون صوت . . . – اين الالمان ؟

وحدقت فيها جينكا مباشرة لمدة ثانية ، ثم التقطت الرشاش ، واندفعت نحو الشاطئ دون ان تلتفت خلفها .

واخرج الشاويش قميصا وكلسونا وشريطين احتياطييـــن وعاد . وحاولت ريتا ان تقول شيئا فلم يسمع . ومزق بالسكين سترتها وجونلتها وملابسها الداخلية المشبعة بالدم واطبـــق اسنانه . مرت الشظية فى خط مائل ممزقة بطنها ، ومن خـــلال الدم الاسود كانت امعاؤها الزرقاء تنتفض – ووضع القميص على سطح الجرح واخذ يضمده بالشريط .

– لا باس يا ريتا ، لا باس . . . الشظية مست السطح . . . الامعاء سليمة . . . ستشفين . . .

ودوت دفعة رصاص من الشاطئ . وعادت الطلقات تدوى حولهما واوراق الشجر تتساقط ، وفاسكوف يضمد ويضمد ، وكلما وضع خرقة تشبعت بالدم على الفور .

– اذهب . . . الى هناك . . . اذهب – قالت ريتا بصعوبة – جينكا هناك . . .

وازت بجوارهما دفعة رشاش . . . كانت مصوبة اليهما ، ولكنها لم تصبهما . فالتفت الشاويش واستل مسدسه واطلق النار مرتين على شبح تراءى . . . لقد عبر الالمان النهر .

وكان رشاش جينكا يطلق نيرانه فى مكان ما ،. وهو لا يزال يعضعض ككلب مطارد متوغلا داخل الغابة . وادرك فاسكوف ان جينكا تسحب الالمان وراءها . ولكنها لا تسحبهم جميعا ،. فقد لاح بين الاشجار مخرب آخر ، فاطلق الشاويش النار عليه من جديد . كان لابد من الانسحاب ونقل اسيانينا ، لان الالمان كانوا يحومون حولهما وكانت كل ثانية توشك ان تصبح الاخيرة .

حمل ريتا على ذراعيه دون ان يلقى بالا لما تهمس به شفتاها الرماديتان الممزقتان . واراد ان يلتقط البندقية ايضا فلم يستطع ، فركض نحو الخمائل وهو يشعر مع كل خطوة ان القوة تتسرب من يده اليسرى المصابة التى تؤلمه كضرس مريض .

وبقيت تحت الصنوبر الاكياس والبنادق والمعاطف وقمصان جينكا الداخلية التى رماها الشاويش عندما ناولتها له . قمصان مرحة ، هفهافة ، لعوب . . .

كانت جينكا شديدة الولع بالملابس الداخلية الجميلة . كانت تستطيع ان تحرم نفسها من اى شىء بسهولة ،. فقد كانت مرحة الطباع دائمة الابتسام ولكنها ظلت تحمل معها بعناد فى الاكياس العسكرية اطقم الملابس الداخلية التى اهدتها لها امها قبيل الحرب مباشرة ، رغم ما تعرضت له من توبيخ وطوابير حراسة اضافية وغيرها من عقوبات الجندية .

وكان من بين تلك الملابس قميص داخلى يطير العقل . . . حتى ابوها لم يتمالك نفسه من اطلاق ضحكة وقال :



– لا يا جينكا . . . هذا اكثر من اللازم . . . لاى شىء تستعدين ؟

– للحفلة ! . . . – اجابت جينكا باباء ، وان كانت تعرف ان اباها قصد شيئا آخر تماما .

لقد كانا يفهمان بعضهما جيدا .

– هل تأتين معى لصيد الخنزير البرى ؟

فصاحت امها :

– لن اسمح لها . . . هل جننت حتى تأخذ فتاة للصيد !

فضحك الاب قائلا :

– دعيها تتعود . ابنة القائد الاحمر لا ينبغى ان تخاف من شىء .

ولم تكن جينكا تخاف من شىء . كانت تمارس الفروسية ، والرماية ، وتجلس مع ابيها فى كمين لصيد الخنزير البرى ، وتقود موتوسيكل ابيها بطيش فى شوارع المدينة العسكرية . والى جانب ذلك كانت ترقص فى الحفلات رقصة «الغجرية» و«الماتشيش» ،وتغنى على انغام الجيتار وتغازل الملازمين الممشوقى القوام غزلا بريئا ،. لمجرد اللهو ، دون ان تقع فى حب احد .

ويقول لها ابوها :

– جينكا . . . لقد ادرت راس الملازم سيرجيتشوك تماما . تصورى انه جاءنى اليوم فخاطبنى قائلا : «يا رفيق جينرال . . .»

– كفى خداعا يا بابا !

كان عهدا سعيدا ، مرحا ، ولكن امها كانت تقطب وجهها دائما وتتنهد . . . ابنتها اصبحت كبيرة ، آنسة ، كما كانوا يقولون فى الماضى ، ومع ذلك فسلوكها غير مفهوم . تتردد على ميدان الرماية ، وتقفز على الخيول والموتوسيكلات ، او ترقص حتى الفجر ، وهؤلاء الملازمون بباقات الزهور الضخمة ، وهذه الاغانى الليلية تحت النوافذ ، والرسائل الشعرية . . .

– عيب يا جينكا . . . اتعرفين ماذا يقولون عنك فى المدينة؟

– دعيهم يثرثرون يا ماما !

– يقولون راوك مع العقيد لوجين عدة مرات . انه متزوج ورب اسرة يا جينكا . . . هل هذا يصح ؟ . .

– وهل انا بحاجة اليه ؟ . .

وهزت جينكا كتفيها وولت .

كان لوجين جميلا ، غامضا وبطوليا . وكان يحمل وسام العلم الاحمر لقاء معارك خالخين-جول ، ووسام النجمة الحمراء لقاء الحرب الفنلندية . واحست امها ان هناك شيئا وراء تهرب جينكا من الحديث فى هذا الموضوع . . . احست بذلك وداخلها الخوف . . .

وعندما لقى اهل جينكا مصرعهم ، واصبحت وحيدة تماما عبرت خط الجبهة ، فكان لوجين هو الذى التقطها . التقطها واحاطها بالدفء والامان. وليست القضية انه استغل ضعفها آنذاك ، ولكنها هى نفسها كانت بحاجة الى ركيزة تعتمد عليها وركن تأوى اليه كانت بحاجة الى ان تنفس عن حزنها فتبكى وتشكو وتشعر بيد حنون تلاطفها ، لكى تستطيع ان تعثر على نفسها من جديد فى عالم الحرب الرهيب هذا . نعم ، لقد سار كل شىء كما كان ينبغى له ان يسير ، ومن ثم لم تشعر جينكا بالحزن . وعموما فهى لم تكن تحزن ابدا . وكانت واثقة من نفسها . . . حتى الآن ، وهى تسحب الالمان بعيدا عن اسيانينا ، لم تشك لحظة فى ان كل شىء سينتهى نهاية موفقة .

وحتى عندما اخترقت الرصاصة الاولى جنبها ، لم تشعر جينكا سوى بالدهشة . . . الدهشة من الموت هكذا ، بحماقة ، بصورة لا تعقل ولا تصدق ، فى عامها التاسع عشر . . .

اصابها الالمان دون تسديد ، عبر الاوراق ، وكان باستطاعتها ان تختبئ وتنتظر ، وربما امكنها ان تنسحب . ولكنها ظلت تطلق النار حتى آخر طلقة . ظلت تطلق النار وهى راقدة ، دون ان تحاول الهرب ، لان قواها كانت تتسرب مع دمائها النازفة . واجهز الالمان عليها عن قرب ووقفوا طويلا بجوارها يحدقون فى وجهها الذى ظل شامخا وجميلا رغم الموت . . .





كانت ريتا تعلم ان اصابتها قاتلة ، وانها سوف تتعذب طويلا قبل ان تموت . لم تشعر حتى الآن بالم تقريبا ، ولكن نارا تصاعدت من جوفها فاحست بالظمأ . وكان الشرب ممنوعا ، ولذلك اخذت تبلل خرقة فى نقرة ماء وتضعها على شفتيها .

كان فاسكوف قد خباها تحت شجرة شوح مقلوبة ، وغطاها بالاغصان ثم انصرف . وحتى تلك اللحظة كان اطلاق النار مستمرا ، ثم سرعان ما هدأ كل شىء فجأة فبكت ريتا . بكت دون صوت او شهقات ، انسابت الدموع على خديها بصمت ، فقد ادركت ان جينكا لم تعد على قيد الحياة . . .

ثم نضبت دموعها ، تراجعت امام ذلك الشىء الضخم الذى كان عليها الآن ان تواجهه وتدركه وتستعد له . لقد انفتحت تحت قدميها هوة سوداء باردة ، فحدقت فيها ريتا بشجاعة وصرامة .

لم تشعر بالحسرة على نفسها وحياتها وشبابها ، لانها كانت تفكر طوال الوقت فيما هو اهم بكثير من نفسها . سيبقى ابنها يتيما ، وحيدا فى رعاية امها المريضة ، فكانت ريتا مشغولة الآن بالتفكير فى مصيره اثناء الحرب وحياته بعدها .

وسرعان ما عاد فاسكوف . ازاح الاغصان وجلس بجوارها فى صمت ممسكا بيده الجريحة وهو يتمايل .

– جينكا قتلت ؟

فاومأ براسه ، ثم قال :

– اختفت اكياسنا . الاكياس والبنادق . اما انهم اخذوها معهم ، او خباوها فى مكان ما .

– جينكا ماتت . . . على الفور ؟

– على الفور . . . – اجاب فاحست انه كذب – لقد انصرفوا . . . ليحضروا المتفجرات على ما يبدو . . . – ولمح نظراتها الخابية التى تدرك كل شىء ، . فصاح فجأة – لم يهزمونا ، فاهمة ؟ انا لا زلت حيا ، وعليهم اولا ان يطرحونى ارضا .

وصمت وصر على اسنانه واخذ يتمايل مهدهدا يده المصابة .

– تؤلمك ؟

– هنا يؤلمنى – ودق على صدره – هنا الالم يا ريتا . الالم المحرق . انا السبب فى هلاككم . . . جميعا . . . الخمسة . . . من اجل ماذا ؟ مقابل عشرة المان ؟

– لماذا تقـــول هذا . . . كل شىء مفهوم . . . انهـــا الحرب . . .

– الآن مفهوم ، اثناء الحرب . ولكن فيما بعد ، حين يحل السلام ؟ هل سيكون مفهوما لماذا كان عليكم ان تموتوا ؟ هـــل سيكون مفهوما لماذا لم اجعل هؤلاء الالمان يمرون ، لماذا اتخذت هذا القرار ؟ وبماذا ارد عندما يسالوننى : كيف لم تستطيعـوا ايها الرجال ان تحموا امهاتنا من الرصاص ؟ كيف زففتموهن للموت وبقيتم انتم احياء ؟ عمّ دافعتم . . . عن سكة حديد وقناة ؟ ولكن من المؤكد انه كانت هناك حامية تحميها ، جنود اكثر بكثير مـن خمس فتيات وشاويش بمسدس !

فقالت ريتا بصوت خافت :

– لا داعى . . . الوطن لا يبدا من القنوات ، كلا ، ابـدا . ونحن كنا ندافع عنه . عن الوطن اولا ، وبعد ذلك عن القناة .

فتنهد فاسكوف بشدة :

– نعم . . . – ثم سكت قليلا وقال – ارقدى هنا الى ان القى نظرة حولنا ، والا فاجاونا وانتهى الامر . . . – واستل المسدس ، ولسبب ما مسحه بكمه بعناية – خذى . فيه رصاصتان فقط ، ولكنك ستشعرين معه بالطمانينة اكثر .

فقالت ريتا وهى تنظر الى السماء التى تحجبها الاغصان :

– انتظر . . . اتذكر عندما اكتشفت الالمان عند التحويلة ؟ كنت آنذاك ازور امى فى المدينة . ابنى هناك عندها . عمره ثلاث سنوات . اسمه اليك . . . البرت . امى مريضة جدا ، لن تعيش طويلا ، وابى فقد فى الحرب . . .

– اطمئنى يا ريتا ، فهمت كل شىء .

– شكرا لك . . . – وابتسمت بشفتين لا لون لهما – هل تلبى رغبتى الاخيرة ؟

فقال :

– لا .

– لا فائدة من التظاهر . . . اننى سأموت على اى حال . . . ولكنى قبل ذلك سأشبع عذابا .

– ساقوم بالاستطلاع واعود . وسنصل الى رفاقنا فى المساء .

فقالت فجأة :

– قبلنى .

فانحنى بارتباك ولثم جبينها بحياء .

– غير حليق . . . – قالتها بصوت لا يكاد يسمع ، ثم اغمضت عينيها – اذهب . غطنى بالاغصان واذهب .

كانت الدموع تنساب ببطء على خديها الرماديين الغائرين . ونهض فيدوت يفجرافيتش بهدوء وغطى ريتا بالاغصان بعناية ، ومضى مسرعا نحو النهر لمقابلة الالمان .

كانت القنبلة اليدوية التى لا فائدة منها تتدحرج ثقيلة فى جيبه . . . كانت سلاحه الوحيد . . .

واحس بقلبه اكثر منه باذنيه بتلك الطلقة الضعيفة التى كتمت دويها الاغصان . تسمر فى مكانه وهو يصغى الى سكون الغابة ، ثم انطلق عائدا الى شجرة الشوح الضخمة المقلوبة وهو يخشى ان يصدق .

اطلقت ريتا النار فى صدغها ، فلم تنزف دماؤها تقريبا . وكانت ذرات البارود الزرقاء الكثيفة تحيط بثقب الرصاصة ، ولسبب ما ظل فاسكوف يحدق طويلا فى هذه الذرات . ثم نقل ريتا من موضعها وبدأ يحفر قبرا فى المكان الذى كانت راقدة فيه .

كانت الارض هنا طرية رخوة ، فاخذ يقلبها بعصا ثم يجرف التربة بيديه ويقطع جذور الاشجار بالخنجر . وحفر الحفرة بسرعة ودفن ريتا باسرع مما حفر ، ودون ان يأخذ قسطا من الراحة ذهب الى حيث كانت جينيا ممددة . كانت يده تؤلمه بلا انقطاع ، المما مرهقا على دفعات . ولذلك دفن كوميلكوفا بصورة سيئة وظل طول الوقت يفكر فى ذلك ويتحسر ويتمتم بشفتيه الجافتين :



– سامحينى يا جينكا ، سامحينى . . .

سار وهو يترنح ويتعثر عبر السلسلة الزرقاء لملاقاة الالمان . كانت يده تقبض بشدة على المسدس الفارغ الا من الرصاصة الاخيرة ، ولم يكن يريد الآن سوى شىء واحد : ان يلقى الالمان باسرع ما يمكن وان يتمكن من قتل المانى آخر . لانه لم تعد فيه قوة . . . مطلقا . . . لا شىء سوى الالم . . . فى الجسد كله . . .

وغطت غلالة الغسق البيضاء الاحجار الدافئة ، وترسب الضباب فى الاماكن المنخفضة وسكن الهواء ، فتجمع البعوض اسرابا فوق راس الشاويش . ولاحت له فى هذه الغلالة البيضاء فتياته جميعا ، الخمس ، فظل طوال الوقت يتمتم بكلمات ما بمرارة ويهز رأسه . ولم يظهر الالمان . لم يصطدم بهم ، ولم يسمع طلقاتهم ، رغم انه كان يسير بخطوات ثقيلة ، كاشفا نفسه لهم وهو يسعى الى لقائهم . لقد حان الوقت لانهاء هذه الحرب ووضع آخر نقطة فى السطر . وكانت هذه النقطة الاخيرة تستقر الآن فى ماسورة مسدسه الزرقاء .

صحيح كانت معه ايضا قنبلة بدون كبسولة . مجرد قطعة حديد . ولو سأله احد لماذا يحمل هذه القطعة لما استطاع ان يرد . كان يحملها هكذا ، بحكم العادة المتأصلة فيه كشاويش : ان يحافظ على العهدة الحربية .

لم يكن لديه الآن هدف ، بل رغبة . ولم يسلك طرقا ملتوية ولم يبحث عن الآثار ، بل سار مباشرة مدفوعا كآلة بنابض . ولم يعثر للالمان على اثر . . .

كان قد عبر حرش الصنوبر وسار الآن فى الغابة مقتربا شيئا فشيئا من صومعة ليجونت حيث حصل فى الصباح بكل بساطة على السلاح . ولم يكن يفكر فى الهدف من وراء ذهابه الآن الى هناك ، ولكن غريزة الصياد الصادقة قادته الى هذا الطريق بالذات فاستسلم لها وحدها . وعندئذ ابطأ سيره فجأة ، وانصت قليلا ، ثم انسل بين الاغصان .

على بعد مائة متر يبدأ المكان المكشوف حيث تنتصب قاعدة البئر الخشبية المتآكلة والكوخ المغروز فى الارض . وقطع فاسكوف الامتار المائة هذه بخفة وصمت . وكان يعرف ان العدو

هنـاك ، وقد عرف ذلك بدقة لا يمكن تفسيرها ، كما يعرف الذئب من اين سيخرج له الارنب .

تسمر بين الاغصان القريبة من المكان المكشوف ووقف طويلا بلا حركـة يفحص بعينيـه قاعدة البئر ، التى لم يعد ممددا بجوارها المائل والخمائل الداكنـة قرب اركانه . ولم يجد هناك ما يلفت النظر ، ولكنه ظل ينتظر بصبر . وعندما ابتعدت بقعة باهتـة عن زاويـة الكوخ قليلا لم يدهش الشاويش ، فقد كان يعرف بالفعل ان الحارس يقبع هناك بالذات .

وتقدم فاسكوف نحوه طويلا ، بلا نهاية . كان يرفع قدمه ببطء كما فى الحلم ، وينزلها على الارض دون وقع وكانها لا تزن شيئا . لم يكن يخطو ، بل ينقل ثقل جسمه قطرة قطرة ، لكيلا يخشخش غصن واحد . ومضى فى رقصة الطيور الغريبة هذه حتى دار المكان المكشوف فاصبح خلف ظهر الحارس الثابت فى مكمنه . وتقدم نحو ظهره الداكن العريض بابطا وارفق من ذى قبل . لم يكن يمشى بل يسبح .

وتوقف على بعد خطوة . لقد كتم انفاسه طويلا ، والآن وقف ينتظر حتى يهدأ قلبه . كان منذ فترة طويلة قد دس مسدسه فى قرابه وامسك فى يمناه بالخنجر . واحس برائحة الجسد الغريـب فبدأ يرفع الخنجر ببطء ، مليمترا بعد مليمتر ، ليهوى بضربـة حاسمة واحدة .

وكان يستجمع قواه التى لم يعد لديه منها الا القليل ، القليل جدا ، ولم يكن فى وسع يده اليسرى ان تساعده بشىء .

ووضع فى هذه الضربة كل ما لديه ، حتى آخر قطرة . ولم تند

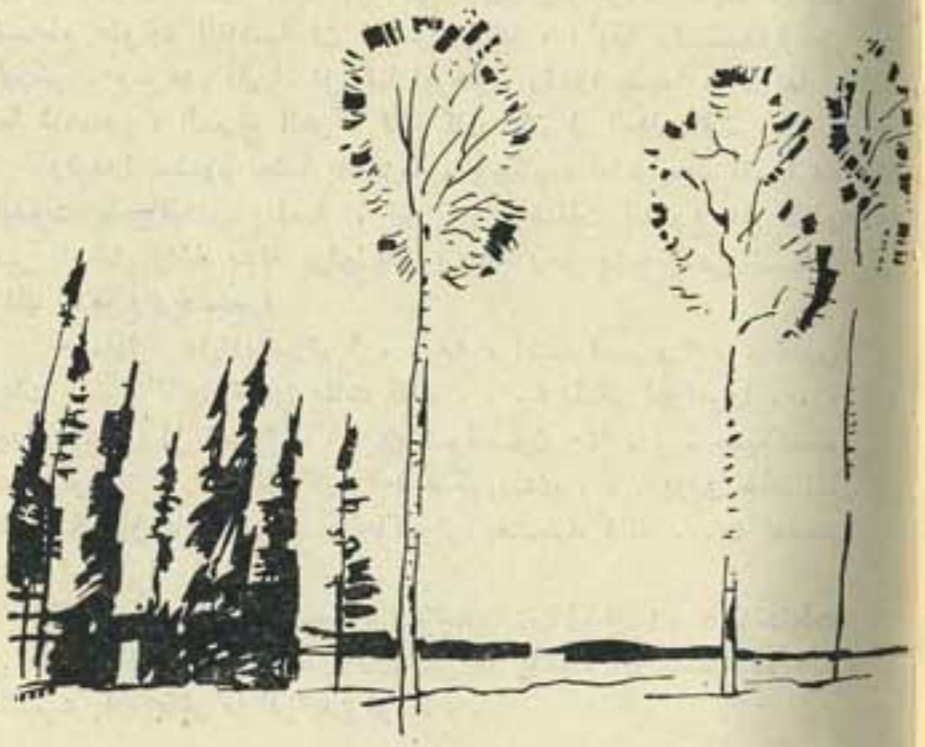

عن الالمانى صرخة تقريبا ، وانما تنهد بالم وبطريقة غريبة وجثا على ركبتيه . وشد الشاويش الباب المائل ، وبقفزة كان داخل الكوخ :

– هاندى هوخ !

كانوا نائمين . كانوا ياخذون قسطهم من النوم قبل الوثبة الاخيرة نحو السكة الحديد . ما عدا واحدا ، قفز الى الركن ليلتقط سلاحه ، ولكن فاسكوف لمح هذه القفزة فاطلق عليه رصاصة مباشرة تقريبا . وهز الدوى السقف المنخفض ، وارتطم الالمانى بالجدار ، اما الشاويش فقد نسى فجاة جميع الكلمات الالمانية فصاح بصوت مبحوح :

– ارقد ! . . ارقد ! . . ارقد ! . .

وسبهم باقذع سباب يعرفه . . .

. . . لم يخف الالمان من صرخته ، كلا ، ولا من القنبلة اليدوية التى كان يلوح بها . . . وانما لم يخطر لهم على بال ولم يتصوروا ابدا انه وحيد ، ولا احد غيره على مدى كيلومترات عديدة . لم تستطع عقولهم الفاشية ان تتصور ذلك ، ولهذا رقدوا على الارض ، وجوههم الى اسفل كما امرهم . رقدوا جميعا ، الاربعة ، اما خامسهم ، السريع الحركة فقد كان الآن فى العالم الآخر .

وقيدوا بعضهم بعضا بالاحزمة ، باحكام ، اما رابعهم فقد قيده فيدوت يفجرافيتش بنفسه . ثم بكى . سالت الدموع على القذر غير الحليق واخذ بدنه يرتجف فى رعشة وهو يضحك من خلال تلك الدموع ويصيح :

– ماذا ، هل انتصرتم ؟ . . هه ، انتصرتم ؟ . . خمس بنات . . . كانوا خمس بنات فقط . . . ولكنكم لم تمروا . . . ابدا . . . ولن تمروا . . . وستموتون هنا . . . جميعكم ستموتون . . . ساقتل كل واحد منكم بيدى . . . بيدى هذه اذا عفا عنكم رؤسائى ! وليحاكمونى بعد ذلك . . . نعم فليحاكمونى ! . .

كانت يده تؤلمه بشدة ، وتؤجج النار فى جسده ، فاختلطت فى عقله الافكار . ولذلك كان اخشى ما يخشاه ان يفقد وعيه ، فتشبث به ، بآخر ما لديه من قوة . . .



ولم يستطع ابدا ان يتذكر تلك المرحلة الاخيرة من الطريق . كانت ظهور الالمان تتراءى امامه وهى تترنح يمينا وشمالا لانه هو نفسه كان يترنح كالثمل . ولم ير شيئا آخر سوى هذه الظهور الاربعة ، وكان يفكر فى شىء واحد : ان يتمكن من اطلاق النار عليهم قبل اللحظة التى يفقد فيها وعيه . وكان هذا الوعى معلقا فى خيط واه ، بينما كان الالم يشتعل نارا فى جسمه كله ، حتى اخذ يجار من شدة ذلك الالم . كان يجار ويبكى ، يبدو ان قواه قد خارت تماما .

ولم يسمح لوعيه ان يتركه الا عندما سمع اصواتا تناديه ، وادرك ان القادمين نحوه هم رفاقه . . . الروس . . .

## خاتمة

تحياتى يا صغيرى !

انك تكاد تلفظ انفاسك هناك فى العمل ، اما نحن فنصطاد السمك فى هذه البقعة الساحرة . صحيح ان البعوض الملعون يرهقنا ، ومع ذلك فالحياة هنا نعيم ! هيا يا صغيرى تسول من رؤسائك اجازة واسرع الينا . المكان هنا مقفر من السيارات والبشر . ومرة واحدة فى الاسبوع يأتينا زورق بالخبز ، وفيما عدا ذلك تستطيع ان تتجول طول اليوم ولو عاريا . وفى خدمة السياح نهر وبحيرتان فخمتان عامرة بالسمك . اما عن الفطر فحدث ولا حرج ! . .

وبالمناسبة ، فقد وصل بالزورق اليوم رجل عجوز ، ابيض الشعر ، ربعة ، بذراع واحدة ، ومعه نقيب فى سلاح الصواريخ . ويدعى النقيب البرت فيدوتيتش (تصور ؟ !) اما هو فينادى العجوز باللقب القروى القديم : «آبا» . وصلا واخذا يبحثان عن شىء ما ، فلم القى بالا . . .

. . . بالامس لم استطع ان اكمل الرسالة ، وها انا اكملها فى الصباح .

اتعرف ، لقد اتضح ان الحرب دارت هنا ايضا . . . عندما لم نكن انا وانت قد ولدنا بعد .

لقد جاء البرت فيدوتيتش وابوه بلوح رخامى . وفتشنا حتى وجدنا قبرا ، وراء النهر ، فى الغابة . وجده والد النقيب حسب علامات معينة يعرفها هو . واردت ان اساعدهما فى حمل لوح الرخام ولكنى لم اجرؤ . . .

اتدرى . . . الفجر هادئ هنا حقا . . . لم الاحظ ذلك الا اليوم .